عالم الاموات

اسرار العلاقة بين الموتى والاحياء

الدكتور

اسامة عدنان يحيى



عالم الاموات

عالم الاموات

اسرار العلاقة بين الموتى والاحياء

د. اسامة عدنان يحيى

الطبعة الاولى: 2019

الترقيم الدولي(ISBN): 978-9922-9104-1-3

حجم الكتاب: 15×21



عالم الاموات

اسرار العلاقة بين الموتى والاحياء

د. اسامة عدنان يحيى
استاذ تاريخ الحضارات القديمة

مقدمة.

ان هذا العمل المقتضب لا يهدف في كل الأحوال الى دراسة مفصلة حول طبيعة فهم العالم الآخر في تراث الجنس البشري، كما لا يهدف الى فهم مفصل لطبيعة العلاقة بين الاحياء والموتى، بقدر ما يحاول ان يفهم جوانب من تلك العلاقة من جهة؛ ويسلط الضوء على مسألة في غايات الاهمية، الا وهي، كيف فكرت الشعوب القديمة بالموتى، وكيف اعتقدت انهم رغم انفصالهم عن عالم الأحياء، مرتبطين معهم في الوقت ذاته.

ان فهم التاريخ البشري يحتاج الى الغوص في تراثهم العريق، من اجل ليس معرفة تطورات شعوبهم السياسية والاقتصادية فحسب، بل معرفة تطورهم الفكري، وتراثهم الشعبي، وهو ما يحاول هذا العمل القيام به؛ بمعنى آخر: انه نوع آخر من التاريخ، يبحث في النفس البشري، محاولاً فهمهاً من منطلق تاريخي.

1

حتمية الموت وانعدام الخلود

آمنت شعوب العالم بحتمية الموت، وان الانسان من المستحيل له ان يحظى بالخلود وهذا ما تؤكده الادبيات القديمة. فالعراقيين القدماء كانوا يؤمنون بحتمية الموت بالنسبة لجميع البشر، فالموت من طبيعة الانسان وتركيبه، اذ انه خُلق ومعه حياته وموته، وهو قانون طبيعي قدرته الالهة عندما خلقت البشر، فالآلهة احتفظت لنفسها بالخلود بينما جعلت الموت من نصيب البشر، اذ لا مفر للإنسان من الموت، فهو يلاحقه دائما حتى يقبض عليه في نهاية المطاف[1]. ولعل كلكامش اقدم من شغلته هذه المشكلة التي ارقت البشرية، ففي الملحمة نلاحظ بشكل واضح كيف ان الموت شكل صدمة ذات ابعاد خطيرة في عقلية الانسان القديم، فموت اينكيدو مثل خسارة فادحة بالنسبة له، وكانت افجع من ان يتحملها، اذ كان رافضاً من داخله ان يعترف بها كأمر واقع، وتعبر الملحمة عن هذا الرفض على لسان كلكامش:

"ذاك الذي شاطرني في كل خطر

حتف الانسان المحتوم قد احاق به

بكيته طيلة النهار، وطيلة الليل بكيته

ورفضت الاذن بدفنه

فلعل رفيقي ينهض لصراخي

سبعة ايام وسبع ليال

الى ان سقطت من انفه دودة

---

[1]) سهيل قاشا، اثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية،(بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والاعلام،1998)،ص166؛ احمد امين سليم، مصر والعراق: دراسة حضارية،(بيروت: دار النهضة العربية،2002)،ص440.

لا عزاء لي منذ ان راح

ورحت انا الصياد اطوف البراري".

لقد كان شبح الموت يلاحق گلگامش ويفزعه عندما ادرك ان الموت سيقهره اجلاً ام عاجلاً مثلما قهر صديقه اينكيدو، وعندما صار يفكر بوسيلة للتخلص من الموت ونيل الحياة الخالدة، تذكر جده اوتنابشتم رجل الطوفان الذي يعيش في بقعة نائية في البحار البعيدة، والذي كان قد حصل على الحياة الخالدة، فعزم گلگامش على شد الرحال إليه مهما كلفه الامر ليسأله عن سر الحياة الخالدة. وبعد سفر طويل شاق وصل حانة مقدسة تقيم فيها احدى الالهات، ويدخل گلگامش الحانة ويقص قصته على صاحبتها ويطلب منها ان ترشده الى الطريق الموصل الى اوتنابشتم، وهنا تقول له:

"الى أين انت تسعى يا گلگامش؟

ان الحياة التي تبغي لن تجدها

حينما خلقت الالهة العظام البشر

قدرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة".

فالموت في النهائية هو المصير الوحيد امام البشرية ولا شيء سواه:

"البشر سوف يُحصدون مثل عيدان القصب

الشاب الجميل والفتاة الجميلة وان كانا يتحابان

سوف يواجهان الموت كلاهما

كلا ما من احد يستطيع رؤية الموت

وما من احد يمكنه سماع صوت الموت

شرس هو الموت، انه حصاد البشر

هل نبني بيوتنا الى الابد؟

هل نختم عقودنا الى الابد؟
هل يتقاسم الاخوة ميراثهم الى الابد؟
هل يستمر الكره في البلاد الى الابد؟
هل ترتفع مياه النهر لتأتي بالفيض الى الابد؟
ومثل اليعاسيب يحملها(ميتة) مجرى الماء
فالوجوه التي كانت ترى النور
فجأة لا يبقى منها شيئاً
النوم والموت سيان
وما من احد قط رسم صورة للموت".
ولأن الموت مقدر من الآلهة فهو خفي على البشر:
"الآلهة العظام المجتمعون
ماميتو صانعة المصائر قررت معهم
فرضوا(علينا) الموت كما فرضوا الحياة
لكن الموت لم يكشفوا اجله"[2].

ان التقاليد الاسطورية العديدة تقدم مبررات عدة حول التساؤل الذي ارق البشرية منذ قديم الزمان وهو: لماذا على الانسان ان يموت؟، ولماذا لم يحظ بالخلود مثل الالهة؟.

تشرح لنا اسطورة بابلية هذه المسألة، والاسطورة تدور حول رجل يدعى اداپا(adapa) خلقه الإله ايا(Ea) في اريدو(Eridu) ووهبه حكمة واسعة

[2]) حكمت بشير الاسود، ادب الغزل ومشاهد الاثارة في الحضارة العراقية القديمة،(دمشق: دار المدى للثقافة والنشر،2008)،ص188؛سليم،مصر والعراق: دراسة حضارية،ص456-457؛ وداد الجوراني، الرحلة الى الفردوس والجحيم في اساطير العراق القديم،(بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة،1998)،ص45؛ قاسم الشواف، ديوان الاساطير: سومر واكد واشور،(بيروت: دار الساقي،2001)،ج4،ص398، 401-403.

ليكشف خطط البلاد، غير انه لم يمنحه الحياة الابدية؛ لكن جعله الاله ايا نموذجاً أمثل للإنسان:

"[اراد ان] ان تكون كلمته مثل كلمة[آنو(؟)]

أتحفه بعقل واسع لكي يكشف مصائر البلاد

اعطى هذا الانسان الحكمة، ولكنه لم يمنحه الحياة الابدية

في ذلك الزمان، في تلك السنين، كان الحكيم قد ولد في اريدو

خلقه ايا نموذجاً بين الناس

حكيما لا يستطيع احد ان ينبذ كلمته

عالما، انه الاذكى بين الانونناكي

قديساً يداه طاهرتان، انه ممسوح، ودقيق في الرتب"

كان سماكاً يزود مائدة الآلهة في المعبد بالأسماك، ويساهم في توفير الطعام والشراب لسكان مدينته:

"مع طباخي اريدو، كان يقوم بالطبخ

كل يوم كان لـ اريدو يدبر الطعام والشراب

كان يرتب بيديه النقيتين مائدة القرابين

وبدونه لم تكن المائدة توضع

كان يوجه الزورق ويصطاد لـ اريدو في الماء العذب"

وذات يوم بينما كان اداپا يصطاد في قاربه هبت: "ريح الجنوب"، فقلبت قاربه رأساً على عقب، عندئذ غضب اداپا، واطلق عليها لعنة فكسر جناحها، الامر الذي سبب توقفها عن الهبوب[(3)]:

"يا ريح الجنوب، لتكن ملعونة جميع رقاك

---

[3]) قارن باحث بين اسطورة اداپا والمسيح فيما يخص ايقاف الرياح. انظر: اسامة عدنان يحيى، تاريخ الشرق الادنى القديم: دراسات وابحاث،(بيروت: دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع،2015)،ص32-36.

ليتني احطم جناحك، وحينما لفظ هذه الكلمات،
اذا بجناح ريح الجنوب قد تحطم".
وعندما علم إله السماء انو(Anu) بالحادث، طلب إحضار اداپا امامه على الفور، فخشي الاخير العقاب، فلاذ بإله الحكمة ايا، الذي ساعده بلمسة منه:
"الا ان ايا كان يعلم ما في السماوات
فلمس اداپا وجعله يحمل شعراً وسخاً
وألبسه ثوب الحداد".
واخبره انه سوف يلاقي عند بوابة الإله انو إلهين هما: دوموزي(Dumuzi)، وگيشزيدا(Gišzida)، فإذا سألاه عن سبب حزنه عليه ان يقول لهما: ان إلهين اختفيا من الارض وإنه حزين على فقدهما، فإذا سألاه عن اسميهما وجب أن يقول: انهما يدعيان دوموزي وگيشزيدا، عندئذ سوف يشعر هذان الإلهان الحارسان بالامتنان لـ اداپا لمشاعره نحوهما، وسوف يتشفعان له عند إله السماء انو:
"حينما صعد اداپا الى السماء
ودنا من باب آنو
كان دوموزي وگيشزيدا يقفان على باب آنو
حينما رأياه صرخا: واعجباه
يا رجل لمن ارتديت بهذا الشكل يا اداپا؟
لمن ارتديت ثوب الحداد هذا؟
(قال اداپا)لأن إلهين اختفيا في بلادنا
من هما هذان الإلهان اللذان اختفيا في البلاد؟
دوموزي وگيشزيدا، فنظر احدهما الى الاخر
اصبحا كلهما ابتسامات".

ولكن اهم من كل ذلك ما قاله الاله ايا لـ اداپا بأن الإله انو سوف يقدم له عند مثوله امامه: "خبز الموت، وماء الموت"، فعليه أي اداپا، الا يأكلهما، ولكن عندما يقدم له انو رداء فعليه ان يلبسه، وعندما يقدم له زيتاً فعليه ان يدهن به جسده. ثم اكد إله الحكمة لـ اداپا الا يخالف وصيته هذه مهما كلف الامر؛ وعندما صعد اداپا الى السماء، حدث كل ما قاله الاله ايا، ثم حضر امام الاله انو الذي سأله عن السبب الذي دفعه الى كسر جناح ريح الجنوب فأجابه اداپا قائلا:

"كنت اصطاد السمك لمعبد سيدي في وسط البحر

(و)كان البحر مماثلا للمرآة

هبت الريح الجنوبية واغرقتني

(فـ) صرت اصارع في بيت السمك

(و) بفورة قلبي لعنت الريح الجنوبية".

وفي هذه الاثناء تدخل كل من الحارسين دوموزي وگيشزيدا، اللذين سبق وإن أعجبا بعواطفه تجاههما، فالتمسا الاله انو ان يعفو عنه، وأن يقدم له شيئاً جزاء تلك المشاعر، فقرر الاله انو ان يقدم له خبز الحياة، وماء الحياة، ولكن:

"قدموا له خبز الحياة فلم يأكل

قدموا له ماء الحياة فلم يشرب

قدموا له رداءً فلبس

قدموا له زيتاً فتعطر به

رمقه آنو وضحك عليه

تعال اداپا، لماذا لم تأكل، ولم تشرب؟

ما انت مواصل للحياة، من اين للناس المعرفة؟

ايا سيدي قال لي: لا تأكل،(و) لا تشرب

تلقوه، واعيدوه الى ارضه".

وقيل في نسخة اخرى من الاسطورة ان آنو ضحك عالياً على نصيحة ايا وقال: "[من بين آلهة] السماء والارض(السفلى)، كل من موجود منهم، من عمل هكذا؟

من زاد كلمته بدلاً عن كلمة آنو".

اما الاسطر القليلة الباقية من اسطورة ادابا فإنها غير ذات اهمية لصلب الموضوع، وهو ضياع فرصة الخلود. بعدها ينخرم رقيم الطين دون أن نتعرف على نهاية القصة التي ربما تطرقت الى عودة ادابا من السماء الى الارض بعد أن ضيع على نفسه وعلى البشرية جميعا فرصة ثمينة للخلود[4].

نقرأ في ملحمة گلگامش انه عندما قرر العودة الى اوروك خائباً في الحصول على الخلود حثت زوجة اوتنابشتم زوجها من اجل اعطائه هدية، وحينئذ رق لحاله وكلمه قائلا:

"كان گلگامش في تلك اللحظة قد رفع المردي

ليقرب السفينة الى الشاطئ

(فأدركه) اوتنابشتم وخاطبه قائلاً

لقد جئت يا گلگامش الى هنا وقاسيت التعب

فما عساني ان اعطيك حتى تعود الى بلادك؟

سأفتح لك يا گلگامش سراً خفياً

اجل! سأكشف لك عن سر من اسرار الآلهة!

---

[4] انظر النص البابلي وترجمته في: نائل حنون، نصوص مسمارية تاريخية وادبية: الترجمة المباشرة من الاصول المسمارية مع الشروحات والتعقيبات اللغوية،(بيروت: دار التنوير،2015)،ص256-277؛ انظر ايضا: قاشا، اثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية،ص168-170؛ الجوراني، الرحلة الى الفردوس والجحيم في اساطير العراق القديم،ص38-40، 157، 166، 230-234؛ قاسم الشواف، ديوان الاساطير: سومر واكد واشور،(بيروت: دار الساقي،1997)،ج2،ص479-486؛هنري س. عبودي، معجم الحضارات السامية،(بيروت: جروس برس،1991)،ص476-477.

يوجد نبات مثل الشوك ينبت في المياه

وشوكه يخز يديك كما يفعل الورد

فإذا ما حصلت يداك على هذا النبات وجد الحياة(الجديدة)".

فربط گلگامش برجله حجارة ثقيلة وغاص في اعماق البحر ووجد ذلك النبات العجيب وعزم على اخذه الى مدينته:

"ما ان سمع گلگامش هذا القول

حتى فتح المجرى الذي اوصله الى المياه العميقة

وربط بقدميه احجارا ثقيلة

ونزل الى اعمق المياه حيث ابصر النبات

فأخذ النبات الذي يخز يديه

وقطع الاحجار الثقيلة عن قدميه

فخرج من عمق البحر الى الشاطئ

ثم قال گلگامش لـ اور-شنابي الملاح

يا اور-شنابي ان هذا النبات عجيب

يستطيع المرء ان يعيد به نشاط الحياة

وسيكون اسمه: يعود الشيخ الى صباه كالشباب

لأحملنه معي الى اوروك المحصنة

وأُشرك معي(الناس) ليأكلوا منه

وانا سآكله(في اخر ايامي) حتى يعود شبابي".

وفي طريقه الى اوروك شاهد بركة ماء بارد، وكان اليوم قائظاً وقد بلغ به التعب من السفر اقصاه، فخلع عنه ثيابه، ونزل ليستحم ويزيل عن نفسه وعثاء السفر، وترك على حافة البركة النبتة التي احضرها معه، وفيما هي ملقاة هناك، تشم رائحتها احد الافاعي، فتخرج من جحرها وتختطفها،

وحصلت بواسطتها على قدرة تجديد الشباب، اذ كلما ادركها الهرم نزعت عنها جلدها فتجدد شبابها وتولد فتية من جديد، اما الانسان فيستحيل عليه هذه العودة الى الشباب لأن نبتة گلگامش ضاعت عليه؛ ويبدو ان هذه الفكرة كانت ناجمة من اعتقاد الانسان القديم بأن الحية خالدة لا تموت، وان تبديلها لجلدها القديم بجلد اخر هو تجديد لحياتها كلما نال منها الهرم:

"ابصر گلگامش بئرا باردة الماء

فنزل فيها ليغتسل في مائها

فشمت الحية شذى النبات

فتسللت واختطفت النبات

ثم نزعت عنها جلدها

اما گلگامش فقد امتلئ قلبه مرارة، وتأمل في النهاية بحثه الطويل عن الحياة بعد ان ضاعت فرصة اخرى امام الانسان ليصبح خالداً:

"عندها قعد گلگامش ارضاً وبكى

وجرت الدموع على خديه:

لمن اجهدت عضلاتي يا اورشنابي؟

لمن سكبت الدم من قلبي؟

لم ات لنفسي ببركة واحدة

ولم احسن الصنيع الا لأسد التراب

أ فبعد عشرين ساعة مضاعفة

يأتي هذا المخلوق فيخطف النبات مني؟

وقد سبق لي اني لما فتحت منافذ المياه

وجدت ان هذا نذيراً لي ان اتخلى(عن مطلبي)

واترك السفينة في الساحل"[5].

هناك اسطورة نيجيرية تقول: عندما خلق الرب البشر والحيوانات جميعاً، واسكنهم الارض، كان يحزن كلما مات واحد منهم، وذات يوم نادى كلبه وطلب منه الذهاب الى العالم لكي يخبر الناس انه عندما يموت احدهم في المستقبل يجب ان يضعوه في صندوق، وينثروا عليه رماد الحطب، ثم يتركوه على الارض حتى يعود الى الحياة بعد اربع وعشرين ساعة. وبعد مضي نصف يوم على انطلاق الكلب في رحلته غلبه التعب، وقد كان على مقربة من بيت امرأة عجوز، فنظر الى الداخل ورأى عظمة عليها بعض اللحم فأكلها ثم اخلد الى النوم ناسياً تماماً الرسالة التي كُلف بإبلاغ الناس بها. بعد فترة عندما لم يعد الكلب نادى الخالق خروفاً وارسله الى العالم ليوصل الرسالة نفسها، لكن الخروف كان احمقاً جداً، كما انه جاع فراح يرعى العشب في دربه، وبعد مرور بعض الوقت تذكر الخروف ان عليه تبليغ رسالة للناس، لكنه نسي فحواها، فوصل الى الناس، وقال لهم ان الخالق اوصى بدفن أي شخص يموت تحت التراب. بعد فترة قصيرة تذكر الكلب الرسالة، فهرع الى المدينة، واخبر الناس ان عليهم وضع رماد الحطب على جثث الموتى، وتركهم في الصندوق، وانهم سيعودون للحياة بعد 24 ساعة. لكن الناس لم يصدقوه وقالوا: "لقد وصلتنا رسالة الخالق عبر الخروف، وعلمنا انه علينا دفن الموتى"[6]. وهكذا كان الاهمال في تبليغ رسالة الخالق سبباً في دفن الموتى وليس عودتهم للحياة.

هناك اسطورة هندية رواها لنا ڤولتير ربما سمعها من بعض الفرس وليس من الهنود، توضح ان الانسان فقد الخلود بسبب مكر الافعى؛ اذ يروي

---

[5] سليم، مصر والعراق: دراسة حضارية،ص459؛ الجوراني، الرحلة الى الفردوس والجحيم في اساطير العراق القديم،ص47، 76-77، 226-228؛ الشواف،ج4،ص410-413.

[6] الفينستون داريل، الصياد المحظوظ: حكايات شعبية من نيجيريا الجنوبية، ترجمة: دنيا فرحات،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010)،ص90-91.

بعض الاسيويين(الهنود) بأن الله لما خلق الانسان اعطاه وثيقة مكتوبة على رق جميل فيها سر الخلود، فحملها الانسان على حماره، وذهب يجوب العالم. وفي الطريق صادف الحمار الحية وسألها ان كان يوجد في الجوار نبع يستطيع ان يشرب منه، فقادته الحية بكل لطف الى عين. وبينما كان الحمار يشرب والانسان بعيداً سرقت الحية الوثيقة وقرأت السر وهو تبديل الجلد، وهذا ما جعلها خالدة. وحسب الفكرة الاسيوية احتفظ الانسان بجلده فكان عرضة للموت[7].

ثمة اسطورة پولينيزية تتحدث عن سبب موت البشر وفقدانهم الخلود وتقول انه في ختام حياة حافلة بالمغامرات عاد ماوي(Maui) وهو بطل قبيلة الماوري(Mauri)الى وطنه، فيذهب الى جدته هين نويت پو(Hine Nuite po)، وهي سيدة الليل العظمى، لكنه يجدها تغط في نوم عميق، فينزع ثيابها بسرعة فائقة ثم يدخل جسد المرأة العملاقة، ويتجول في انحاء جسدها من دون ان يصيبه مكروه، وفيما هو يتأهب للخروج، ونصف جسده ما زال في فم الامرأة العملاقة، راحت الطيور التي رافقته في تلك المغامرة تغرد. عندها استيقظت الجدة، سيدة الليل العظمى، وقد استولى عليها ذُعر شديد، فكزت على اسنانها فأنشطر ماوي الى شطرين، ولقي حتفه للتو. لهذا، حسبما يقول ابناء قبيلة الماوري، صار الانسان فانياً، وتحتم عليه مواجهة الموت، ولو نجح البطل ماوي من الخروج من احشاء جدته سالماً لما انتهى الانسان الى الموت ولصار من الخالدين[8].

---

[7]) شارل فيروللو، اساطير بابل وكنعان، ترجمة: ماجد خيري بك،(دمشق: مطبعة الكاتب العربي،1990،ص54.

[8]) ميرتشيا الياده، التنسيب والولادات الصوفية، ترجمة: حسيب كاسوحة،(دمشق: منشورات وزارة الثقافة،1999)،ص123-124.

2

الحياة الثانية بعد الموت

ان فناء شخصية الانسان بعد الموت حالة يصعب التوفيق بينها وبين اختبارنا اليومي، فالإنسان الذي عاش بيننا سنوات، لابد وان يترك وراءه فراغاً رهيباً في حياتنا في حالة موته، ولا مناص من ان نُكّيف انفسنا وعاداتنا لتحمل فراقه، وفي هذا التكيف كثيراً ما نفكر فيه، وتبقى معنا امداً طويلاً مؤثراته وذكرياته، ونتخيله حياً في احاديثنا واحلامنا. هذه كلها اختبارات عرفها جيداً اسلافنا الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ، كما نعرفها نحن اليوم. فلا غرابة بعد ذلك ان نرى انسان العصر الحجري القديم يحس احساساً اكيداً بأن الموتى الراحلين ليسوا احياءً وحسب، ولكنهم يفتقرون الى حاجات الحياة الارضية التي شغفوا بها[9].

ان الاعتقاد بحياة ثانية بعد الموت مسألة تم البرهنة عليها منذ العصور الموغلة بالقدم بسبب وجود الصبغ الاحمر المستخرج من المغرة الحمراء[10]، وهي البديل الشعائري للدم، والذي يمثل رمز للحياة، وربما كانت ذرات اوكسيد الحديد تُنثر فوق جسد الميت قبل دفنه، ومن ثم فإنه عندما يبلى الجسد تكون العظام قد صُبغت باللون الاحمر. ويتجه بعض المؤرخين في تفسير وجود اللون الى احتمال فائدته في اعطاء الحياة لصاحب تلك الجثة، وذلك على اعتبار ان اللون الاحمر يرمز الى الدم والذي يعد جريانه في جسد

---

[9]) حبيب سعيد، اديان العالم،(القاهرة: دار التأليف والنشر للكنيسة الاسقفية، بلا. ت)،ص27.

[10]) المغرة الحمراء: أوكسيد الحديد المائي الطبيعي، وهو نوع من التربة يطحن مسحوقًا ناعمًا ويستخدم صبغة مع زيت بذر الكتان أو زيوت أخرى لتكوين الألوان للرسامين. يختلف لونه من الأصفر الباهت إلى البني الأحمر. وبعض المغرات الصفراء يتحول لونها إلى الأحمر عند تسخينها. وتتألف المغرة من أكسيد الحديد الممزوج مع الصلصال والرمل. ويوجد في جورجيا احتياطي كبير من المغرة الصفراء. وفي مصر القديمة، المغرة الحمرة كانت تستخدمها النساء كأحمر شفاه.

الانسان دليل على الحياة، ويمكن الاستدلال من ذلك على ايمان انسان العصور القديمة على الحياة الاخرى[11]؛ وان رش الجثث بتراب المغرة كان طقساً منتشراً بشكل واسع، من شو-كو-تين(chou-Kio-tien) في الصين(اذ عثر على جماجم وفكوك سفلى محفوظة يعود تاريخها ما بين 400,000-300,000 قبل الميلاد) حتى الشواطئ الغربية لأوروبا، وفي افريقيا حتى رأس الرجاء الصالح، وفي استراليا وتاسمانيا، وفي امريكا حتى ارض النار[12]. وهذه الظاهرة نجدها ايضا في الشرق القديم، فقد كشفت قبور عصور ما قبل التاريخ في العراق عن طبقات سميكة من لون المغرة الحمراء الذي كان منتشراً فوق الجسم[13]؛ ففي قبر فتاة عُثر عليه في كهف شانيدر(الطبقة B1)(تعود الى الالف التاسع قبل الميلاد) وجد هناك مغرة حمراء[14]. ووجد في الطبقة الاولى من تل الصوان قبر امرأة مطلي بالمغرة الحمراء[15].وقد سجل ليونارد وولي الذي اكتشف المقبرة الملكية في اور انه في قبرين هناك، كان القسم العلوي من جسم الميت مغطى بمسحوق احمر اللون وفي احد الحالتين كانت هناك كومة من اوكسيد الحديد الاحمر موجود قرب الرأس، مما يدعو الى الاعتقاد بأن الاجساد كانت مدهونة بهذه المادة ودون شك فإن المسحوق كان من مادة الدهان نفسها في الكومة[16].وفي ايران القديمة استخدمت المغرة الحمراء فوق

---

[11]) احمد امين سليم، ايران منذ اقدم العصور حتى اواسط الالف الثالث قبل الميلاد،(بيروت: دار النهضة العربية،1988)،ص114؛احمد امين سليم، دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم،(بيروت: دار النهضة العربية،1989،ص352.

[12]) ميرتشيا الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس،(دمشق: دار دمشق للنشر،1987)،ج1،ص22.

[13]) الاسود، ادب الغزل ومشاهد الاثارة في الحضارة العراقية القديمة،ص64.

[14]) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة،،(بيروت: دار الوراق للنشر،2012)،ج1،ص211.

[15]) المصدر نفسه،ج1،ص240.

[16]) سيتون لويد، اثار بلاد الرافدين: من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي،ترجمة: محمد طلب،(دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر،1993)،ص64.

اجساد الموتى، ففي موقع تبه اسياب وخلال الفترة العائدة للعصر الحجري الوسيط كُشف عن دفنتين نُثر فوقهما المغرة الحمراء[17]؛ وخلال العصر الحجري الحديث وضعت المغرة الحمراء على عظام الموتى[18]؛ ويمكن ان نلاحظ ذلك جيداً في موقع كهف بلت(النصف الثاني من الالف السادس قبل الميلاد) الذي عُثر فيه على هيكل عظمي لفتاة صغيرة، وقد ظهرت بقايا اللون الاحمر الذي نُثر على الجسد فوق عظامها[19]؛وفي موقع تبه حاج فيروز نُثر تراب الحديد الاحمر فوق الموتى[20]؛ كذلك لوحظ وجود لون احمر على عظام الموتى في تبه سيالك(الالف الخامس قبل الميلاد)، وهذا بسبب وضع ذرات اوكسيد الحديد على جسد الميت بكثرة، ومن ثم فإنه عندما يبلى الجسد تكون العظام قد صُبغت باللون الاحمر[21]؛ وفي تبه سيالك ايضاً في الطبقات العائدة للعصر الحجري المعدني(اواخر الالف الخامس وبدايات الالف الرابع قبل الميلاد) نُثر فوق الجثث اوكسيد الحديد الذي ترك اثاراً عميقة على العظام[22]؛ كما استمرت عادة نثر التراب الاحمر فوق اجساد الموتى خلال الالف الرابع قبل الميلاد[23]، ففي تبه سيالك كانت الهياكل العظمية المدفونة في الطبقات الاولى العائدة الى الالف الرابع قبل الميلاد تحمل اثار لون احمر على الجماجم فقط وليس على العظام كلها مثلما كان موجوداً سابقاً[24]، وبلا شك ذلك يشير الى

---

[17]) سليم، ايران، ص105.

[18]) سليم، ايران، ص114؛ سليم، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص352.

[19]) سليم، ايران، ص136.

[20]) المصر نفسه، ص139.

[21]) سليم، ايران، ص155؛ سليم، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص379.

[22]) سليم، ايران، ص180؛ سليم، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص394.

[23]) سليم، ايران، ص204؛ سليم، دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم، ص410.

[24]) سليم، ايران، ص210؛ سليم، دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم، ص416.

تغير في المعتقدات الدينية، وربما اخذ السكان يعتقدون ان الحياة للميت ستعود اليه عن طريق الرأس.

ان الاعتقاد بوجود حياة ثانية بعد الموت يشير بشكل واضح الى ان الميت سيستعيد حياته لاحقاً، وان هذه العودة للحياة بعد الموت كانت من غير شك روحية محضة، وهو اعتقاد تأكد عند القدماء عن طريق ظهور الموتى في الاحلام[25]، ففي العراق القديم مثلا لم يكن الموت هو غاية تنتهي عندها الحياة وتنعدم انعداماً كلياً، وانما يعني الموت هناك انفصال الروح عن الجسد، وان الميت لا يعود هو نفسه الى الحياة بل الذي يعود منه هو الروح التي تحيا الحياة في عالم الارواح وهو العالم الاسفل حيث تعيش هناك الى ابد الابدين من غير قيامة ولا رجعة، ومع هذا الانفصال بين الجسم والروح فإنه تبقى بعض الصلة بين الاثنين بعد الموت[26].وكان المصريون القدماء يعتقدون ان الإنسان عندما يموت ينتقل الى عالم آخر يبعث فيه حياً وخالداً الى الابد، واعتقدوا ان حياته في عالم الاموات افضل من حياته الدنيوية، لأن الانسان يعيش فيها متمتعاً بالسعادة، وقد شجعتهم معتقداتهم الخاصة بخلود الروح على الاهتمام بمقابرهم اكثر من عنايتهم بمنازلهم، ووصفوا المقابر بأنها المساكن الخالدة[27]. وبسبب الاعتقاد بوجود حياة ما بعد الموت لدى القدماء لذا فقد ساد الاعتقاد في عدد من ثقافات العالم ان عودة الموتى يتم في ايام محددة من العام، وان هذه الاعتقادات المنتشرة في كل مكان تقريباً التي تقول بأن الاموات يعودون الى عائلاتهم(وفي الغالب يأتون امواتاً-احياءً) عند اقتراب العام الجديد، تدل على ان الامل بإلغاء الزمن ممكن في هذه اللحظة

---

[25]) الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية،ج1،ص23.

[26]) سليم، مصر والعراق: دراسة حضارية،ص440.

[27]) ابراهيم نمير وآخرون سيف الدين وآخرون، صور من الحضارة في مصر القديمة،(القاهرة: دار المعارف، 1954)،ص30.

الميثولوجية حين ينتهي العالم ويعاد خلقه من جديد، عندئذ يكون بوسع الاموات ان يأتوا ثانية، لان كل حاجز قد تهدم بين الاحياء والاموات، وبالتالي سوف يأتون ثانية، لان الزمن يتوقف في هذه اللحظة المتضاربة، فيصبحون معاصرين للأحياء من جديد. زيادة على ذلك، بما ان الخلق الجديد هو في سبيل الاعداد، يستطيعون ان يأملوا بعودة الى الحياة، دائمة وحسية. وان هذا يفسر لنا لماذا حين يعتقد الناس بالانبعاث الجسدي، يعتقدون ايضاً بأن هذا الانبعاث انما يحصل في بداية السنة، أي عند بداية عهد جديد. فكما يقول القديس مار افرام السرياني(306-373م): "القدير يوقظ الاجساد، وفي الوقت نفسه الارواح في عيد الغطاس". وهناك نص بهلوي يقول: "في شهر فروردين(الشهر الاول)، في يوم اسكوردات، يقوم الرب اهورمزد ببعث الاموات، والجسد الثاني، ويتخلص العالم من العجز امام العفاريت والسموم، ويعم الخير كل مكان؛ لن يكون ثمة شهوة، وسوف يتطهر العالم، ويتحرر الانسان من الاضداد(امراض الروح)، ويُخلد الى الابد". ويقول القزويني: "ان الرب في عيد نيروز يبعث الموتى ويرد اليهم ارواحهم، ويعطي اوامره الى السماء فتنزل عليهم مطراً، لذلك اعتاد الناس اراقة الماء في هذا اليوم". وهكذا يتضح الصلات الوثيقة بين افكار الخلق من الماء(ولادة الكون من الماء؛ الطوفان الذي يعيد ولادة الحياة التاريخية؛ المطر)، وبين الولادة والبعث، تؤكدها هذه العبارة الواردة في التلمود: "عند الله ثلاثة مفاتيح: مفتاح المطر، ومفتاح الولادة، ومفتاح قيامة الموتى"[28]. وفي اليابان تتميز الليلة الاخيرة من السنة بمجيئ الاموات في موكب لزيارة عائلاتهم ويرمز لهذا المشهد عادة بظهور حيوانات جنائزية(ظهور حصان وهو حيوان جنائزي بامتياز)، وظهور آلهة ارضية-

[28]) ميرتشيا الياده، اسطورة العود الابدي، ترجمة: نهاد خياطة،(دمشق: دار طلاس،1987)،ص116-118.

جنائزية؛ وعندئذ تظهر الارتال المقنعة التي تتمثل بالجمعيات السرية الرجالية، ويقوم الموتى بزيارة الاحياء، ويجري الاحتفال بطقوس التلقين(29).

(29) المصدر نفسه،ص128.

3

احترام اجساد الموتى والحفاظ عليها

ان بعض الادلة القليلة والمتناثرة تشير ان عظام الموتى كانت تحظى بالتبجيل والاحترام من قبل الاحياء، وهو افتراض من الممكن ان نبرهن عليه بشكل جيد، اذ وجدت جماجم وفكوك سفلى محفوظة في موقع شو-كو-تين، وان حفظ هذه الجماجم من الممكن ان تفسر بأسباب دينية، وكان الاب برويل(Breuil) ووليم شمدت(William Schmidt) اعتقدا ان ذلك يذكّر بالعرف لدى الاستراليين الاصليين والشعوب البدائية الاخرى، وان هذا العرف يتلخص بحفظ الاستراليين جماجم اقربائهم الموتى، وحملهم معهم في تجوالهم[30]. وسواء كان التفسير الذي قُدم حول جماجم شو-كو-تين يمكن قبوله ام لا، فبلا شك كان طقس الاستراليين يشير الى وجود مكانة مهمة لجماجم الموتى. ويمكن ان نقدم برهاناً اخر حول المكانة المهمة لعظام الموتى من طقس اخر لدى السلاقيين القدماء، فبعد ثلاث، أو خمس، أو سبع سنوات من دفن الميت، تُنبش العظام، وتُغسل، وتُغلف بقطعة قماش، وكانت هذه تنقل الى البيت، وتوضع في الزاوية المقدسة حيث تكون الايقونات معلقة، وان القيمة السحرية والدينية لهذه القطعة من القماش هي بسبب تماسها مع جمجمة وعظام الموتى[31].

في حضارات أخرى حرص الناس على الحفاظ على اجساد الموتى، كما هو الحال في التحنيط. وقد مارست عدة حضارات فن التحنيط اشهرها حضارة مصر القديمة. والتحنيط هو فن حفظ أجساد الموتى، وخاصة الهيكل، حتى تتمكن الروح من العودة الى الأجساد في العالم الآخر. فالعملية

---

30) الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية، ج1، ص22.

31) المصدر نفسه، ج3، ص37.

اذن مرتبطة بإيمان المصري القديم بوجود حياة أخرى بعد الموت، وان الروح التي خرجت من هذا الجسد سوف تعود إليه، لذلك يجب الحفاظ عليه من التلف؛ ولذلك ايضاً لم يقتصر التحنيط على فئة من فئات الشعب دون غيرها، وانما شمل كل الفئات من اغناها الى افقرها. وتعود بدايات التحنيط عندما لاحظ المصريون القدماء الذين كانوا يدفنون موتاهم في رمال الصحراء الجافة دون وجود عازل فعال بين الجثمان والرمال، ان الجسد سرعان ما كان يجف، لأن الرمال الجافة تمتص السوائل التي يمكن ان تعرض الجثة للتحلل والتلف، وكانت هذه ابسط عمليات التحنيط التي مارسها المصريون. ولكن مع الانتقال الى الدفن في المقابر المبنية أو في التوابيت، جعل الجثث تتعرض للتحلل، مما دفع المصريين الى التفكير بحفظها صناعياً. وكان يُعتقد سابقاً ان اقدم الدلائل على وجود التحنيط في مصر يعود الى عصر الاسرة الأولى(2995-2780 قبل الميلاد) وتحديداً الى عهد الملك جر(Djer) الذي عُثر على مقبرته في ابيدوس، وكان معظم الجثة ملفوفة بالكتان؛ ولكن وفق دراسة حديثة اشارت ان بداية التحنيط كان في حدود 4500 قبل الميلاد[32]. ومن الجدير بالذكر الى ان المصريين القدماء لم يتركوا لنا وثيقة توضح لنا المواد والخطوات التي اتبعها المحنطون وهم يقومون بهذه المهمة، وان بعض المواد

[32] حول التأريخ الجديد للتحنيط انظر:

Krystal D' Costa, "How Did Patterns Help Reveal Older of Mummies?", in: Scientific American, 13 August, 2014; Bruce Bower, "Origins of Egyptian Mummy Making May Pramids", in: Science News, 18 August 2014; Sarah Griffiths, Ancient Tomb Reveals That Egyptian Were Mummifying Their Dead 1500 Years Earlier Than Previously Thought", 14 August 2014; Deborah Netburn, Mummy-Making in Egypt Mat Be 1500 Years Older Than We Thought, Los Angeles Times", 16 August 2014; April Holloway, "New Discovery Shows Egyptians Experimented with Mummification 6500 Years Ago", Ancient Origins, 14 August 2014; Rossella Lorenzi, "Mummy-Making Began Long before Pharahohs", in: Discovery News, 13 August 2014.

التي استخدمها المحنطون- رغم كل التحاليل والدراسات التي جرت على مومياوات لآدميين، وحيوانات، وطيور، وزواحف وغيرها من الكائنات- كانت من بين اسرار المهنة، أو انها لم تعد موجودة في البيئة المصرية في الوقت الحاضر. ولهذا يظل الاعتماد الأكبر على ما ورد في بردية مصرية تؤرخ في عصر الاسرة السادسة والعشرين التي تتحدث عن تحنيط العجل ابيس، كما يتم الاعتماد على ما ورد في كتابات المؤرخ الإغريقي هيرودوت الذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد، وديودور الصقلي الذي زار مصر في القرن الاول قبل الميلاد، وعلى بعض المواد التي أمكن التعرف عليها من خلال الدراسة.

ورغم ذلك فإن هناك بعض المعلومات المؤكدة حول التحنيط منها:

1. ان تجفيف الجسد كان من الخطوات الاساسية لعملية التحنيط، وذلك إما طبيعياً من خلال أشعة الشمس، أو صناعياً من خلال التسخين في درجة حرارة معينة للنار.

2. ان بعض المواد التي استخدمت في الحفاظ على الجسد وتحنيطه معروفة، ومنها: الملح، والجير، والنطرون، والراتنج، وشمع النحل، والقرفة، والكاسيا، والحناء، وزيت الأرز، وحب العرعر، والبصل، وعرق النخيل، ونشارة الخشب.

3. ان التحنيط كان قاصراً في البداية على الاثرياء، نظراً للتكلفة الباهظة لمثل هذا الامر، وفي العصور المتأخرة ظهرت طرق بسيطة للتحنيط من خلال التجفيف بالنطرون ليتمكن الفقراء من استخدامها.

4.ان التحنيط ظل معروفاً في مصر حتى نهاية العصر الروماني.

5.ان محاولات الحفاظ على الجسد، والتي سبقت الوصول الى التقنية الكاملة للتحنيط كانت تتضمن، إعداد اقنعة للوجوه للحفاظ على ملامحها، ولف اعضاء الجسد كلها أو بعضها، والتجفيف دون استخراج الاحشاء.

6.ان التربة الجافة ساعدت على الحفاظ على بعض الاجساد في حالة جيدة بدت وكأنها محنطة، بينما الادلة تشير ان يد الانسان لم تمتد إليها.

7. ان المصري القديم كما حنط الاجساد، عالج اللفائف الكتانية بمواد جعلتها قادرة على الاحتفاظ بخصائصها، ولهذا تبدو في معظم الحالات جيدة.

8.ان استخراج الاحشاء لم يكن يحدث في كل عملية تحنيط.

وقد اطلق على الجثث المحنطة اسم مومياء(Mummy) وهي كلمة فارسية تعني القار، لأنه كان يُعتقد ان القار يدخل في عملية التحنيط؛ في حين يعتقد البعض ان المصطلح مشتق من كلمة عربية قديمة هي الميمياء.

مرت عملية التحنيط بعدة مراحل، اذ تشير بعض الادلة الى ان عادة إزالة الاحشاء لم تبدأ الا بنهاية الاسرة الثالثة(2630-2570 قبل الميلاد)، وقد ساعد ذلك على سرعة جفاف الجسد الاجوف، وكان على المحنط عندها ان يحفظ هذه الاحشاء في مكان امين في المقبرة نفسها حتى لا ينقص شيء من الميت حينما يُبعث من جديد، وقد وضعت هذه الاحشاء اولاً في فجوة احد جدران المقبرة بعد ان تُلف بالكتان. اما الأثرياء فكانت احشاؤهم توضع في وعاء خاص يتألف من اربع خانات، وفي العصور اللاحقة امتد استخدام هذه الاوعية ليشمل الطبقات الدنيا، وكانت الاوعية تُصنع من الحجر الجيري وتوضع في صناديق خشبية؛ وقد عُثر من عصر الاسرة الرابعة على صندوق يضم أحشاء الملكة حتب حرس ام الملك خوفو، وعثر فيه على بقايا احشاء ملفوفة في قطع من قماش الكتان، وكانت الأحشاء مغمورة في سائل اتضح بعد تحليله انه يضم ملح النطرون وغيره من المواد، واذا كانت الاحشاء قد عولجت فلابد ان المومياء التي لم يُعثر عليها قد عولجت هي الأخرى. وعُثر في مقبرة شخص في سقارة يدعى نفر من الاسرة الخامسة على جسد في حالة جيدة، اذ يبدو انه قد جرت محاولات للحفاظ عليه من خلال التجفيف. ومن

الاسرة الحادية عشر عُثر في المقبرة الخاصة بالملك منتوحتب نب حپت رع، ومقابر سيدات الاسرة المالكة بجوار معبد الدير البحري، على اجساد مجففة دون استخراج الأحشاء، وكانت ملفوفة بلفائف كتانية. كما عُثر على اجساد لستين من جنوده الذين حاربوا معه ضد الاهناسيين، وكل عضو من أعضاء الجسد ملفوفاً بلفائف كتانية. وظل المصري يطور إجراءات الحفاظ على الجسد الى ان وصل في عصر الاسرة السابعة عشرة الى التحنيط الكامل، والذي يتم بالشكل التالي: كانت الخطوة الأولى فيما يبدو احداث فتحة في الجسد عند الجانب الأيسر، حيث يجري استخراج الأمعاء ومعالجتها ووضعها في أواني الأحشاء الاربعة التي يحميها ابناء الإله حورس الاربعة وهم: حابي، وإمستي، وداموتف، ووقبح سنوف، اولها للكبد ولها رأس انسان، وثانيها للرئتين ولها رأس قرد، والثالثة منها للأمعاء ولها رأس صقر، والرابعة منها للمعدة ولها رأس كلب. وكانت الخطوة التالية على الأرجح هي تنقيع الجسد في حمام به محلول النطرون حتى يمكن التخلص من السوائل الكائنة في الجسد، حتى لا يصاب بالعفن، وهناك رأي آخر بأن الجسد كان يعالج بالنطرون الجاف، اي يُملّح كما تُملّح الأسماك والذي يؤدي الى درجة الجفاف المطلوبة. ويبدو ان خطوة استخدام النطرون كانت تستغرق ما بين 40-70 يوماً، تكون المومياء بعدها مهيئة للدفن. وبعد التأكد من تخلص الجسد من تلك السوائل، ووصوله الى درجة الجفاف الكاملة باستخدام اشعة الشمس، أو وضعه في أفران في درجة حرارة معينة، تبدأ عملية حشو القفص الصدري والبطن بقماش الكتان والراتنج، وأحياناً نشارة الخشب، لتبدو المومياء في شكلها الطبيعي، ثم تأتي بعد ذلك عملية دهن الجسد بالزيت. وابتداءً من الأسرة الثامنة عشرة، كان يجري استخراج المخ من الجمجمة، وذلك من خلال آلة خطافية تمر عبر الأنف، لتصل الى منطقة المخ، فتقوم بهرسه ومن ثم يتم

تفريغه، وبعد التأكد من جفاف الجمجمة تُملأ بالراتنج والكتان. وكان القلب يُترك في الجسد على اعتبار انه سيلعب دوراً اثناء محاكمة الموتى. وكان الجسد أحياناً يُغطى بأكمله بالراتنج، ثم تُلف الأعضاء بلفائف الكتان، وبعد ان تخاط فتحة الجسد تجري عملية لف كاملة بعدد من اللفائف تختلف حسب الحالة الاقتصادية للميت، وقد استُعملت بعض السوائل لرش لفائف الكتان كي تعطيها رائحة زكية. وفي اثناء عملية اللف توضع بعض التمائم داخل اللفائف، واحياناً كانت تُرسم بعض صور الآلهة، ويُكتب اسم الميت على سطح اللفائف بعد الانتهاء من عملية اللف. ثم توضع الجثة المحنطة داخل تابوت من الخشب مغطى بكتابات ورسوم دينية، ويوضع ذلك التابوت داخل تابوت حجري يُحكم غطاؤه، ويستقر في غرفة الدفن المنحوتة في باطن الأرض. اما جثث الفقراء فكانت تُلف بلفائف مشبعة بمركبات تقيها من التلف والتعفن لمدة طويلة، ثم تُدفن في الرمال على عمق متر تقريباً، وقد وجدت جثث محنطة على هذه الحالة وكان الملح هو المادة الحافظة لها. واشار ديودور الصقلي في وقت متأخر الى وجود ثلاث طرق للتحنيط هي:

- الطريقة الاولى: وهي باهظة التكاليف، وفيها تُستخرج محتويات البطن والصدر عدا القلب، وتعالج الأحشاء بالتوابل، وعرق النخيل، ثم يُحشى التجويف بمواد عطرية، وبالمر، والقرفة، وبعد ان تخاط فتحة الجسد، كان الجسد يعالج بالنطرون، ثم يُغسل ويلف في لفائف من الكتان تثبت بنوع من الصمغ.
- الطريقة الثانية: كان الجسد يُحقن بزيت الأرز عن طريق فتحة الشرج، ثم يعالج بالنطرون.

- الطريقة الثالثة: التي اقتصرت على الطبقة الفقيرة، فكانت تقوم على استخدام حقنة شرجية لتنظيف الاحشاء، ثم يعالج الجسد بالنطرون[33].

زودتنا الاكتشافات الاثرية الحديثة بمعلومات جيدة عن التحنيط، اذ اكتشفت البعثة الأثرية الإسبانية عام 2014 على مومياء في تابوت خشبي في منطقة ذراع ابو النجا في وادي الملوك بالبر الغربي في الأقصر، ويدل تزيين التابوت على الاصول النبيلة لصاحبه، وعلى الارجح ان التابوت يعود الى الأسرة السابعة عشرة، وقد عثرت البعثة على التابوت في قبر على عمق اربعة امتار[34]. وفي عام 2014 كشفت بعثة تابعة للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية(IFAO) ومقره في القاهرة على مومياء لامرأة عُثر عليها في دير المدينة بالقرب من وادي الملوك في مصر، وربما كانت تمثل زعيمة دينية حظيت باحترام كبير، ويعتقد الآثاريون ان هذه المومياء التي يغطي جسدها 30 وشماً، عاشت على الأرجح ما بين 1300-1070 قبل الميلاد، وتوفيت في عمر يتراوح بين 25 و34 عاماً. وقد اشارت آن اوستن من جامعة ستانفورد: "من أي زاوية تنظر فيها الى هذه المرأة، ترى زوجاً من العيون الإلهية تنظر إليك". وترتبط رسومات الابقار الموجودة على جسدها بالإلهة حتحور، كما يمكن ان ترمز الوشوم الموجودة على فمها

---

[33]) للمزيد من التفاصيل عن التحنيط انظر: عبد الحليم نور الدين، "التحنيط". بحث من ضمن ابحاث مكتبة الاسكندرية منشور على الموقع الالكتروني(www.bibalex.org)؛ احمد صالح، التحنيط: فلسفة الخلود في مصر القديمة،(القاهرة: جماعة حور الثقافية،2000)؛ احمد عبد الوهاب الشرقاوي، موسوعة الآثار والحضارات القديمة،(عمان: امواج للطباعة والنشر والتوزيع،2015)،ج3،ص21-23.

[34]) انظر: "اكتشاف مومياء تعود الى عصر الملكة حتشپسوت في البر الغربي في الأقصر"، نُشر بتاريخ 2/ 3/ 2014 في الموقع الالكتروني:

https://arabic.rt.com/news/658667.

وذراعها لقوة الشابة السحرية، ربما عندما كانت تغني خلال الطقوس[35]. كما كشفت البعثة الاسبانية العاملة في البر الغربي لمدينة الاقصر على مومياء في حالة جيدة جداً داخل مقبرة فرعونية تعود الى الفترة من 1075-664 قبل الميلاد، وكانت المومياء ملفوفة بالكتان المخلوط بالجبس، او ما يطلق عليه اسم الكرتوناج. وقد اشار تقرير البعثة الى ان المومياء عُثر عليها داخل تابوت خشبي ملونة ومدفونة بالقرب من معبد يعود الى عهد الملك تحوتمس الثالث، وكانت المقبرة التي عُثر فيها على المومياء تعود لشخص من النبلاء يدعى آمون رع نف، حامل لقب: خادم الملك. وذكرت مريم سيكو الفاريز رئيسة الفريق الآثاري الاسباني ان المومياء مُزينة بكثير من النقوش الملونة التي تجسد رموزاً دينية مثل الإله نفتس وهي تنشر جناحيها الى جانب ابناء حور الاربعة[36]. ومؤخراً فتح العلماء في متحف فيلد(Field) في شيكاغو تابوتاً يحتوي على مومياء لصبي مصري عمره 14 عام، اسمه مينيرديس للمرة الاولى منذ اكتشاف التابوت في عشرينيات القرن الماضي، ويعود تاريخ المومياء الى حوالي 500 قبل الميلاد. وقد عثر العلماء في التابوت على ابن لكاهن وهو لا يزال ملفوفاً في قطعة قماش التحنيط التي تحول لونها الآن الى الاصفر، وعلتها الكثير من الأتربة[37]. وفي عام 2014 عُثر على بقايا طفلة مدفونة في مقبرة تحتوي على اكثر من مليون

---

[35]) انظر: "علماء مصريون يكشفون حقيقة مومياء عاشت قبل 3 آلاف سنة"، نُشر بتاريخ 25/ 10/ 2018على الموقع الالكتروني:

https://arabic.rt.com/technology/978478.

[36]) انظر: "العثور على مومياء في حالة جيدة في مقبرة مصرية"، نُشر بتاريخ 13 تشرين الثاني،2016، على الموقع الالكتروني:

http://www.bbc.com/arabic/art-and-culture-37968801.

[37]) "العلماء يفتحون تابوتاً لمومياء مصرية عمرها اكثر من 2500 عام"، نُشر بتاريخ 10 كانون الاول 2014، على الموقع الالكتروني:

https://arabic.rt.com/news/767471.

مومياء، وقد جاء ذلك في تقرير اعلنه فريق من علماء الآثار في جامعة بريغهام يونغ في الولايات المتحدة الامريكية، ويطلق على المقبرة اسم فج الجاموس، والتي تعني طريق الجاموس نسبة الى المنطقة الموجودة فيها في الفيوم، وتعود العديد من المومياوات الى الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الرومانية أو البيزنطية تسيطر على مصر، واشار المنقبون ان المقبرة لم تكن تخص ملوكاً ولا مقربين منهم، وان اغلب المومياوات مدفونة بدون متعلقات الدفن وبدون توابيت او نعوش على عادة المصريين القدماء. وعلى الرغم من الحالة السيئة للموتى، فقد وجد الباحثون عدداً من المقتنيات الجميلة بما في ذلك الكتان والزجاج وحتى جوارب ملونة مصممة للأطفال. واشار رئيس بعثة التنقيبات كيري مولتشاين ان اعضاء المومياوات الداخلية نادراً ما تم نزعها من اجل اجراء عملية التحنيط المتعارف عليها، وبدلاً من ذلك كانت البيئة الطبيعية القاحلة هي التي تقوم بتحنيط اجسادهم، كما عُثر على مومياوات كانت ذهبية الشعر مدفونة جميعها في منطقة واحدة، بينما ظهرت بعض المومياوات الأخرى حمراء الشعر مدفونة في منطقة اخرى منفصلة[38]. ومن جانب آخر تمكن العلماء في معهد مونتريال لعلوم الأعصاب- عن طريق استخدام الاشعة المقطعية- من تصوير مومياء امرأة مصرية، فتبين انها مجردة من الأعضاء الداخلية الاساسية مثل القلب والاحشاء، ولم يبقى من اعضائها الاساسية سوى المخ. وقد اثار هذا الاكتشاف الدهشة الشديدة بسبب الاعتقاد الذي ساد طويلاً بين علماء الآثار والمؤرخين بأن القلب لا يُمس اثناء عملية التحنيط لأن من خلاله تُقدر اعمال الإنسان؛ اذ كان القلب يوضع في كفة وريشة ماعت إلهة الحق والعدل في كفة اخرى كيما يتضح مدى استحقاق الفرد للحياة بعد

---

[38]) "اكتشاف مقبرة في مصر تحتوي على مليون مومياء"، نُشر بتاريخ 17/ 12/ 2014 على الموقع الالكتروني: https://arabic.rt.com/news/768305.

الموت، فإذا رجحت كفة الريشة مُنح الإنسان حياة خالدة؛ اذ كانوا يعتقدون ان قلب الإنسان ينبغي ان يكون خفيفاً وهي الميزة التي يكتسبها الإنسان من الأعمال الصالحة؛ اما اذا كان القلب يزن اكثر من الريشة فليتهمه الوحش عمعوت/عمعم. وقد بينت الصورة المقطعية- بوضوح ودقة- الشق الذي انتُزع منه القلب والامعاء والمعدة والكبد، كما كشفت عن وجود لوحين فوق عظم الصدر والبطن؛ مما زاد من حيرة العلماء لأنه عادة ما كانت توضع الألواح فوق الشقوق لشفائها، لكن هاتين المنطقتين كانتا سلمتين؛ لذا يخمن العلماء ان استخدامهما كان محاولة لعلاج المومياء ككل بعد عملية التحنيط لتتمتع بالصحة والقوة، ومن ثم تصلح لرحلة الحياة بعد الموت، أو انهما وضعا تعويضاً عن الأعضاء المفقودة. ويقول العلماء ان عمر المرأة يتراوح بين الـ 30-50، وانها عاشت في القرن الثالث او الرابع الميلادي، في وقت كانت مصر تحت الحكم الروماني أبان انتشار المسيحية في مصر، حيث بدأت عادات مثل التحنيط في الاندثار وطرأت تغييرات على شعائر الدفن عند قدماء المصريين. ويظن العلماء ان المرأة دُفنت بالقرب من مدينة الأقصر، لكن لا يمكن الجزم بهذا، بسبب باعة الآثار الذين باعوا المومياء في القرن التاسع عشر، ولا يعلم العلماء أيضاً مصير القلب والاعضاء المفقودة[39]. في عام 2017 عثرت بعثة مصرية على مومياوات في منطقة تونة الجبل في مصر الوسطى، اذ عثرت البعثة على فجوات في شرق مقابر ذلك الموقع الاثري تقود الى دهاليز دفنت

[39]) Owen Jarus, "Ancient Egyptian Mummy Found With Brain No Heart", in: Live Science, 6 April 2014; Owen Jarus, " Ancient Egyptian Mummy Found With Brain No Heart", in: Discovery News, 8 April 2014; Parismita Goswami, "Ancient Egyptian Mummy Discovered with Brain but No Heart", in: International Business Times, 7 April 2014; April Holloway, "Ancient Egyptian Mummy Underwent Ritual Healing for the Afterlife, in: Origins, 7 April 2014.

فيها مومياوات بشرية والتي تضم 17 مومياء غير ملكية ولم يحدد تاريخ تلك المومياوات بعد(40).

مما يجدر ذكره هنا من اجل استكمال مفهوم التحنيط عند المصريين القدماء انه التحنيط لم يقتصر على الانسان، بل تعداه الى بعض الحيوانات والنباتات، ففي متحف القاهرة توجد بعض البذور المحنطة، عُثر عليها في بعض المقابر. كذلك وجدت مومياوات لحيوانات وهياكل عظمية كاملة اعيد تركيبها من العظام المأخوذة من هذه المومياوات، يرجع معظمها الى عصر البطالمة، وبعضها الى عصر الاسرة العشرين(1196-1080 قبل الميلاد) وقد شملت هذه الحيوانات المحنطة التماسيح والقطط والكباش وغيرها، ويلاحظ ان بعض هذه الحيوانات كانت ترمز الى بعض الآلهة(41). وفي عام 2015 عثر فريق من الباحثين من جامعة كارديف البريطانية على مقبرة جماعية فيها حوالي 8 ملايين كلب محنط، اثناء عملية تنقيبات جرت بالقرب من الموقع الأثري المصري سقارة، وقد فاجأ العدد الهائل للمومياوات فريق الباحثين. وليس من النادر ان تحدث عملية دفن جماعي للحيوانات في مصر القديمة، وذلك بسبب المعتقدات الدينية التي كانت مرتبطة بالحيوانات، لكن الحجم الهائل لهذه المقبرة مع وجود 8 ملايين جثة حيوان محنط بداخلها، هو ما اثار حقاً الدهشة في الأوساط العلمية. وبلا شك كان اختيار الكلاب للتحنيط بسبب ارتباطها بالإله انوبيس، الذي كان المصريون يعتقدون انه حارس

---

40) انظر: "اكتشاف 17 مومياء في مقبرة فرعونية في محافظة المنيا جنوب القاهرة، نُشر بتاريخ 13 ايار 2017 على الموقع الالكتروني:

http://www.bbc.com/arabic/art-and-culture-39908605.

41) الشرقاوي، موسوعة الآثار والحضارات القديمة، ج3، ص23.

البوابة الى الآخرة، وكثيراً ما كانوا يصورونه برأس كلب وجسم رجل. ويقدر تاريخ هذه المقبرة ما بين 750-30 قبل الميلاد[42].

مع ان المصريين كانوا اشهر من مارس التحنيط من بين الشعوب القديمة، لكنهم لم يكونوا الوحيدين، فقد عثر الآثاريون على جثث محنطة في بعض مواقع حضارات أمريكا الوسطى والجنوبية[43]؛ وقد كُشف مؤخراً عن طريق الصدفة على مومياء في تشيلي تنتمي لحضارة تشينتشيورو التي تعود الى عصر يمتد من 9000-2000 قبل الميلاد[44]. ومن الجدير بالذكر ان الـ تشينتشيورو طائفة بدائية من الناس عاشوا على اراضي تشيلي وبيرو الحالية، وكانوا يحنطون موتاهم، ووفقاً لجامعة هارفرد فبعض مومياوات تشينتشيورو يعود تاريخها الى حوالي 5050 قبل الميلاد، مما يجعلها اقدم المومياوات المعروفة في التاريخ، ولدى تشينتشيورو ما يقرب من 120 مومياء موجودة حالياً في المتحف الاثري التابع لجامعة تاراباكا في تشيلي[45]. كما اجرى اثاريون من متحف اونتاريو في كندا اعمال تنقيب في سبعة قبور وانتشلوا منها 171 مومياءً، واشار رئيس البعثة جاستين جينينغس ان القبور المكتشفة تقع داخل تلال صغيرة تحيط بوادي كوتايسي الذي عاش فيه اهالي بيرو القدماء. وكانت الجثث قد وضعت في أوضاع غير عادية حيث شدت ركبهم الى اكتافهم، وسواعدهم

---

[42]) انظر: "العثور على مومياوات لـ 8 ملايين كلب محنطة في مصر"، نُشر بتاريخ 24/ 6/ 2015 على الموقع الالكتروني:

https://arabic.rt.com/news/786782.

[43]) الشرقاوي، موسوعة الآثار والحضارات القديمة،ج3،ص23-24.

[44]) انظر: "العثور على مومياء عمرها 7 آلاف عام في تشيلي"، نُشر بتاريخ 5/28/ 2014، على الموقع الالكتروني:
https://arabic.rt.com/news/706009.

[45]) انظر: "بعد ان بقيت 7000 عام، اقدم مومياوات العالم تتحلل"، نُشر بتاريخ 13/ 3/ 2015، على الموقع الالكتروني:

https://arabic.rt.com/news/776860.

مكتوفة على صدورهم، ثم لفت الجثث في هذه الأوضاع الغريبة بطبقات عدة من القماش وربطت بحبال. وتعود بقايا الجثث الى اشخاص في اعمار مختلفة بمن فيهم اطفال صغار ومسنون، علماً بأن جثث الاطفال وضعت داخل اوعية. وتتصف كل البقايا المحنطة بأنها وجدت في حالة سيئة بسبب تأثير الماء والقوارض، فضلاً عن ذلك وجد المنقبون ان بعض الجثث شوهت وقُطعت بشكل متعمد حيث بقيت اطرافها متناثرة داخل القبور. وقد اظهر التحليل الذي اجري بواسطة الكاربون المشع ودراسة قطع الفخار ان دفن الجثث المكتشفة تم ما بين عامي 800-1000م[46].

في عام 1958 عثر على مومياء في جبال اكاكوس جنوب غرب ليبيا تعود الى حوالي 3600 قبل الميلاد، وقد اطلق عليها اسم مومياء وان موهي جاج أو المومياء السوداء، وقد عثرت عليها بعثة ايطالية برئاسة فابريزو موري اثناء التنقيب في كهف صخري صغير يقع في وادي تشوينت، في سلسة جبال اكاكوس، جنوب مدينة غات الليبية القريبة من الحدود الجزائرية. وان هذه المومياء المحفوظة في متحف السرايا الحمراء في العاصمة طرابلس تعود لطفل صغير اسمر البشرة، يقدر عمره بعامين ونصف العام، وقد لُفت جثته بعناية في جلد ظبي، وقد اتخذت وضع الجنين، ونُزعت احشاؤها وغُلفت بأعشاب برية بغرض حمايتها من التعفن والتحلل. ومن الجدير بالذكر ان المختصين اشاروا الى وجود عملية تحنيط دقيقة جرت لهذا الطفل، مشيرين الى ان وجود شق على طول البطن والصدر استخرجت من خلاله جميع الاحشاء

---

[46]) انظر: "علماء آثار يكتشفون عشرات القبور الحاوية على مومياوات بوادي كوتايسي في بيرو"، نُشر بتاريخ 15/ 4/ 2015 على الموقع الالكتروني:

https://arabic.rt.com/news/780139.

والاعضاء الداخلية، مرجحين ان تكون قد اضيفت مواد عضوية في داخل الجثة لحمايتها من التعفن[47].

في عام 1983 كشفت التنقيبات التي اجرتها جامعة صنعاء عن مومياوات في منطقة شبام الغراس الواقعة على بعد 27كم شمال شرق صنعاء، وقد عُثِر على اربع جثث محنطة الى جانب بعض الأعضاء المتفرقة في احد المقابر الصخرية، تعود للقرن الثالث قبل الميلاد وان كان تحنيطها اقل جودة من مثيلاتها المصرية. وقد اتضح بعض فحص الجثث ان هناك مادة سوداء استخدمت في عملية التحنيط وبتحليلها اتضح انها مادة الميمياء، التي هي نتاج مواد عضوية توجد بنُدرة في الجبال اليمنية[48].

من الجدير بالذكر ان مومياوات تعود لحقبة متأخرة عُثِر عليها في اوروبا، فقد عُثِر في دير قديم في مدينة برنو في جمهورية التشيك على 24 مومياء مدفونة في سرداب داخل كنيسة، وقد ساعد التركيب الفريد للتربة في أرض السرداب، فضلاً عن فتحات التهوية على جانبيه في الحفاظ على المومياوات من التحلل. وتعود الجثث الى رهبان واعضاء كنيسة الصليب المقدس، وقد وجدت مصفوفة بجانب بعضها وايديها معقودة فوق الصدر وممسكة بمسابح قديمة. وقد قُدر العدد الاصلي للمومياوات بحوالي 200 جثة لم يبق منها سوى العدد المذكور اعلاه. ومن الجدير بالذكر ان الرهبان بدأوا بالدفن داخل السرداب الموجود في الكنيسة منذ مئات السنين وتوقف في القرن الثامن عشر[49].

---

[47]) "المومياء التي سبقت الفراعنة"، نُشر بتاريخ 12 شباط 2016، على الموقع الالكتروني:

https://arabic.rt.com/news/810904.

[48]) نور الدين، التحنيط،ص3-4؛ الشرقاوي، موسوعة الآثار والحضارات القديمة،ج3،ص24.

[49]) انظر: "العثور على مومياوات قديمة في دير بجمهورية التشيك"، نُشر بتاريخ 7/ 6/ 2014 على الموقع الالكتروني:

https://arabic.rt.com/news/711373.

4

الخوف من الموتى

رغم كل الدلائل التي طُرحت الى الآن والتي تشير الى احترام القدماء للموتى إلا ان دلائل اخرى يمكن ان تقدم هنا تشير الى ان احترام الموتى لا يعني في كل الاحوال عدم الخوف منهم، لذا عُد القبر وسيلة عزل للموتى من اجل منعهم للرجوع الى عالم الاحياء، فبصرف النظر عن مسألة تفسخ جثة الميت التي لابد منها، كانت اسباباً عديدة تدفع الاحياء الى عزل الاموات عن طريق القبر، فإنسان العصر الحجري القديم بلا شك – كان مثل العديد من الشعوب البدائية التي ما يزال بعضها معاصراً لنا- يحس بسبب هذه الاعتقاد، اي الحياة الثانية بعد الموت، بشيء من الضيق والقلق، وكان مبعث حيرة له، لان الموتى لا يسهمون فعلاً في الحياة العادية التي الفوها على الارض. لهذا كله نرى اسلافنا البدائيين يتخذون كل حيطة لتوقي تدخل الموتى(بتعبير ادق ارواح الموتى) في شؤون حياتنا الارضية، وخلق الاضطرابات فيها. ولعل العديد من الممارسات التي طبقها انسان عصور ما قبل التاريخ تشير الى عدم رغبته في عودة الميت الى عالم الاحياء كأن يكون: الطرح المجرد والبسيط للأجساد في الحفر؛ او تقطيع الجثث واطعامها الطيور؛ أو والهرب العاجل من المسكن تاركاً الجسد فيه، وهذه كلها تشير على الاقل الى وجود افكار تخص الخوف من عودة الحياة للميت. ومن خلال تفسير بعض المدافن يمكن ان نتأكد من عدة اجراءات تتخذ كاحتياط ضد عود مفاجئ للميت، فأحياناً كانت الجثث تطوى أو تحّزم، ورغم ان طي الجثث يشير الى خوف مؤكد عند بعض الشعوب من عودة الميت، الا اننا لا نستبعد ان تكون وضعية الطي للميت قد لا تشير الى الخوف من عودة الموتى، بل ربما تعني على العكس، اي الامل بولادة جديدة، فحالات عديدة من الدفن كانت بوضعية جنينية. ولدى بعض الشعوب

البدائية معتقدات متنوعة من اجل منع عودة الموتى، اذ كانوا يكدسون كومة من الحجارة على جسد الميت، أو يربطونه بحبال متينة، واحيانا كانوا يغرزون وتداً الى صدره لكي يقيدوا الجسد الى الارض، فلا يكون للميت القدرة على الفكاك منها. وكانت تلك الوسائل لمنع الجسد من المشي، ويتضح من هذه العادات ان هناك عداء بين الاموات والاحياء. على ان هذا التأويل ليس دقيقاً تماماً، اذ انه يتطابق على حالات معينة دون غيرها، مثل: الموتى الذين اهمل شأنهم في الحياة؛ أو الذين ماتوا بطريق العنف والقهر؛ أو الذين ماتوا وهم في عنفوان شبابهم؛ أو الذين ماتوا في الم ووجع من الامراض القاسية؛ أو الذين قتلوا في الحوادث الطارئة؛ أو في عراك مع غيرهم؛ أو الذين ماتوا وهم بعد في مهودهم. مثل هؤلاء تبيت نفوسهم على الضغن والحقد، اذ يحتمل ان ينتقموا من الاحياء، وما زالت بعض هذه العادات باقية حتى اليوم(أي تلك الخاصة بمنع عودة الاموات الى عالم الاحياء) في كثير من بقاع العالم[(50)]. ويمكن ان نقدم نماذج جيدة ربما تشير الى رغبة الاحياء بعدم عودة الموتى الى عالمهم، وتلك النماذج تخص حالات تقطيع الموتى والتي مورست في الشرق منذ عصر سحيق، ففي تل البسطة في الأردن الذي يعود تاريخه الى العصر الحجري الحديث قبل الفخار(B) عوملت هياكل البالغون معاملة قاسية وذلك عن طريق فصل الجمجمة عن الجسد، الا هيكلاً واحداً لشخص مدفون وجد ملقى على وجهه بوضع القرفصاء، وكانت الجمجمة ما تزال على الهيكل العظمي، وقد عُثر على الجماجم المفصولة بوضيعة منفردة أو جماعية[(51)]. وفي موقع البيضا الذي يعود هو الآخر الى العصر الحجري الحديث قبل الفخار(B) دفنت الجثة كاملة، ومنها ما فُصل فيه الرأس ووضع تحت الجثة، وفي حالات

---

[50]) الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية،ج1،ص23؛سعيد،اديان الع الم،ص27-28.

[51]) الشرقاوي، موسوعة الآثار والحضارات القديمة،ج2،ص242.

أخرى دفنت الجثة من دون رأس[52].وفي تل عين الغزال في الاردن ايضاً كانت القاعدة العامة للدفن خلال عصر الطبقة الاولى العائدة للعصر الحجري الحديث بين(6500-7000 قبل الميلاد) هي قطع رؤوس الموتى ودفنها مستقلة عن الاجساد[53]. بلا شك كان فصل الرأس عن الجسد يهدف الى منع عودة الميت الى عالم الاحياء، وربما كان ذلك الفصل يعني حرمان الميت من القدرة على المشاهدة مما يمنعه من العودة.

لدى الشعوب العديد من الطقوس والقصص التي تشير رغبة البشر في طرد الاموات يكفي ان نستعرض نماذج منها، فلدى الرومان طقس يدعى ليموريا(Lemuria) يهدف الى طرد اشباح الموتى عن البشر. فخلال الايام الثلاثة من طقس الليموريا(9، 11، 13 من ايار) كان الاموات يعودون مجدداً الى الارض، وكانوا يزورون منازل اقربائهم. ومن اجل تهدئتهم، ومن اجل منعهم من جر بعض الاحياء معهم، كان رئيس العائلة يملأ فمه بحبات الفول الاسود، وبلفظه لها كلها، كان ينطق تسع مرات بهذه العبارة: "بهذه الحبات من الفول، اشتري نفسي ومن يلوذ بي". واخيراً يحدث ضجة بشيء من البرونز ليخيف الاشباح، ويردد تسع مرات: "مانس(Manes)(اشباح الموتى) ابائي، اذهبوا من هنا"[54]. وفي اليابان نقرأ عن احتفالات الجمعيات السرية ما يخص طقس التاما، والاخير هو جوهر روحي موجود في الانسان، وفي ارواح الموتى، وخلال فترة الانتقال من الشتاء الى الربيع، يتحرك التاما ويحاول ان يغادر الجسد، وهو يدفع بالموتى نحو منازل الاحياء. وللحيلولة دون مغادرة التاما اجساد الموتى تقام احتفالات الاعياد بغرض تثبيت هذا الجوهر الروحي[55].ويشير

---

[52]) المصدر نفسه، ج3، ص16.

[53]) المصدر نفسه، ج3، ص121.

[54]) الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية، ج2، ص127-128.

[55]) الياده، اسطورة العود الابدي، ص129-130.

الفولكلور الشعبي الاوروبي حالات مماثلة لاسيما تلك التي تتحدث عن قيام اشباح الموتى بإخافة الاحياء أو مضايقتهم، مما يستلزم تدخلاً من شخص مرتبط بالمقدس ككاهن مثلاً لكي يُنقذ الاحياء وهو ما يعكس معتقدات قديمة جداً تسبق المسيحية ربما كانت تتضمن قيام كاهن بإجراء طقوس تمنع عودة الموتى، فهناك قصة تتحدث انه في مزرعة بروكيند في مقاطعة فاردسناس في السويد عاشت في قديم الازمان سيدة ثرية تدعى باربرو، وكانت صارمة، قاسية القلب في معاملتها لخدمها، اذ كانت لا تتوانى عن تقييدهم وايديهم وراء ظهورهم، والالقاء بهم في السجن لأبسط الاسباب. ولتزيد من معاناتهم كانت تضع امامهم مائدة مليئة بالطعام لا يستطيعون الوصول اليها بسبب قيودهم. وعندما دفنت السيدة باربرو بعد وفاتها في قبر اسلافها في كاتدرائية لينكوبينج، بدأت الاشباح تظهر بشكل مكثف مما استلزم نبش جثتها ونقلها الى فناء كنيسة فاردسناس، لكنه لم تحظ هناك بالسكينة والهدوء، وعندها، وبناء على اقتراح احد الحكماء، اخرجت جثتها من جديد ونقلت الى مستنقع دفنت فيه، وثبتت بغرز عصا اخترقت التابوت والجثة. وبعد ذلك صارت تُسمع في كل ليلة ضجيج اشباح وصوت ينادي: "باربرو العصا"[56]. من غير ريب كانت هذه القصة- التي تعكس معتقدات سحيقة في القدم- واحدة من القصص التي تُروى عن اشباح الموتى وخروجهم الى عالم الاحياء، ومن اجل التخلص منهم يتم غرز وتد في الجثة لكي يقيدوها في الارض ولا تتمكن من الفكاك. وفي حالات اخرى يتم التخلص من اشباح الموتى عن طريق الكلمات المقدسة، ففي حكاية شعبية سويدية اخرى نقرأ انه في بداية القرن السادس عشر كان هناك نبيل يدعى اندريه بيل، وهو سيد روزندال، المعروف بقسوته الشديدة في

---

[56]) هيرمان هوفبيرغ، اوركو البقرة العملاقة: حكايات شعبية من السويد، ترجمة: هالا دروج،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010)،ص22-23.

التعامل مع خدمه لدرجة انه كان من العادي جداً ان يعاقب اي خادم متمرد بتقييده بالسلاسل، أو حتى يحبسه في زنزانات القصر، ونعرف انه ذات مرة ربط عند فناء القصر فلاح مثل حصان لأنه تأخر عن العمل، وبرر الامر بان الفلاح يقضي العقوبة التي استحقها. وكان الناس يتوقعون ان انساناً عديم القلب مثل هذا لن ينعم بالراحة في قبره، وقد صدقت توقعاتهم بالفعل. فبعد موته ودفنه، صار شبح بيل يزور روزندال كل ليلة، وكان يوقف مجموعة من الاشباح المتدثرين بالملابس البيضاء في الفناء، ثم يتسلل الى غرفة نومه السابقة حيث كان يمضي اوقاته حتى صياح الديك. فاذا وجد السرير مهيأً، تسود الغرفة اجواء الهدوء، وان لم يكن كذلك تُسمع جلبة مريعة تحول دون امكانية للنوم في القصر. وفي الصباح، كانوا يعثرون على اغطية السرير مبعثرة، وقد تعفرت بالتراب كأن كلباً كان ينام في السرير. وعندما واصل الشبح سلوكه هذا لسنوات، لجأ مالك القصر الجديد الى كاهن ورع في هاسلوندا يدعى ماستر ستيفان، وتوسل اليه ان يضع حداً لهذه الزيارات المزعجة. بعد ذلك توجه الكاهن برفقة زميل له الى كنيسة كروب حيث دفن بيل، وعندما دقت الساعة الثانية عشرة في منتصف الليل، فتح القبر وخرج منه شبح السيد المتوفي، وسرعان ما لاذ الكاهن الذي رافق الاب ستيفان بالفرار، لكن الاخير ظل ثابتاً في مكانه، واخذ يقرأ من كتاب كان بحوزته. وفي اثناء القراءة اخذ حجم الشبح يكبر، لكن الكاهن لم يشعر بالخوف. واخيرا قاطع الشبح التلاوة وخاطب الكاهن قائلا: "هل هذا هو انت ستيفان سارق الاوز؟"، فأجابه الكاهن: "هذا انا فعلاً، صحيح انني سرقت اوزة عندما كنت صبياً، ولكنني اشتريت بثمنها كتاباً مقدساً، وبهذا الكتاب المقدس سأرسلك الى جهنم ايها الشبح الشرير". وما ان ضرب الكاهن الشبح على جبينه بالكتاب المقدس حتى غرق الشبح من جديد في العقاب والعذاب. ولكن لسوء الحظ،

وبسبب صحة التهمة التي وجهها بيل للكاهن، ولكونها قد صدرت من بيل، فإن صلوات الكاهن، وتلاواته، فقدت الكثير من قوتها، لذا لم يستطع ان يفرض على الشبح حالة من الهدوء الكامل، لكنه تمكن مع ذلك من تحقيق انجاز كبير، اذ لم يعد بيل يزور روزندال سوى مرة واحدة في العام(57). وفي اليابان نقرأ عن حالة مماثلة استلزمت تدخل معلم زن لكن الوسائل في التخلص من اشباح الموتى بعيد عن وسائل العنف، ففي حكاية شعبية نقرأ انه ذات يوم فقد زوج شاب يدعى هيوشي زوجته كيريوكا وهي ما تزال في مقتبل العمر، ورغم كونها جميلة الا انها كانت غيورة بشكل مخيف، وبعد حداد يستحق التقدير استمر ستة اشهر شعر هيوشي مع اطلالة الربيع بمشاعر جديدة تتولد فيه، واذ بدء البحث عن زوجة، ثم خطب فتاة جميلة تدعى يويوهي، وباختصار كان الشاب الارمل عاشقاً، واسعد مما كان مع زوجته السابقة في أي يوم. حينذاك ظهر طيف زوجته، وذات ليلة بينما كان نائماً بارتياح على حصيرته، احس بتيار هواء بارد يدغدغ اخمص قدميه، فاستيقظ وشاهد كيريوكا امامه، ورغم ما فيها من اضمحلال، بدت الزوجة غاضبة، ولم تفقد شيئاً من طبعها الغيور، وسرعان ما قالت له: "كيف تجرؤ على خيانتي مع صغيرة بلهاء، لا حسن فيها-واضافت بلهجة غاضبة- ولها منذ ولادتها ندبة شديدة القبح على الجهة اليسرى من صدرها". فسأل زوجها المسكين مندهشاً: "كيف عرفت ذلك"، فأجابته: "في مملكة الاموات يمكننا الوصول الى الاسرار ونعرف كل الاشياء التي تخفى على عيون الاحياء". وتلاشت الحسناء سريعة، ولم ينم الزوج المرتعد خوفاً تلك الليلة. ومنذ ذلك الحين اصبحت حياة هيوشي جحيماً، ففي الليل كان يتسلل اليه طيف كيريوكا فيقض مضجعه وهي

---

(57) هيرمان هوفبيرغ، البجعة الحسناء: حكايات شعبية من السويد، ترجمة: هالا دروج،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010)،ص20-22.

تقول له: "اعرف كل شيء عنك، ومعرفتي هذه تقيدك، حياتك لي وحدي، لي انا". ولم يكن امام هيوشي الا ان يفضي بسره هذا الى احد اصدقائه الذي نصحه بأن يستشير معلم زن شهير يعيش متنسكاً في معبد كنينغي القديم، فذهب هيوشي إليه رغم كون رحلته للمعبد كانت طويلة وصعبة، ولما اصبح في المعبد حكى للمعلم محنته فقال له: "استحالت زوجتك شبحاً، وتعرف كل شيء عنك"، فأجابه هيوشي: "نعم ايها المعلم، انت تعلم انه يمكنها، وقد نزلت في ديار الاموات، ويمكنها الوصول الى تلك الاسرار التي يتعذر علينا نوالها، انها تعرف الماضي والمستقبل، وتدقق متى تشاء في ادنى افكاري". وهنا قرر معلم الزن مساعدته وقال له: "عندما يظهر طيف زوجتك، جاهر بجهلك بتذلل، وامتدح معارفها المدهشة، وتملقها، واعرض عليها صفقة، مؤكداً لها: ان استطعت الاجابة عن سؤال اخير، سوف اقتنع نهائياً بقدراتك فوق الطبيعية، واتخلى عن يويوهي التي ليست سوى مخلوقة عادية، وسأكون زوجك المخلص الى الابد". ثم قال له: "تناول بيدك حفنة كبيرة من حبوب الصويا، واسألها كم هو عدد الحبات؟"، فأجابه هيوشي: "أ هذا كل شيء"، فلم يجبه معلم الزن واتخذ وضعية اللوتس والتأمل. عاد هيوشي الى البيت في الليلة نفسها ظهر طيف زوجته من جديد وقال له: "ذهبت لزيارة معلم الزن- قالت ساخرة- اتحسب اني اجهل ذلك، وانك تستطيع الافلات مني؟"، فأدخل هيوشي يده في كومة الصويا، وانتزع منها حفنة كبيرة بيده اليمنى ومدها مغلقة وقال لها: "كم حبة في قبضتي؟"، فتبدد طيف كيريوكا في الهواء، ولم يظهر بعد ذلك قط[58].

تكشف الحكايات اعلاه حقائق مهمة على المؤرخ ادراكها، فرغم سذاجة الحكاية للبعض فإنها تكشف طقوس قديمة جداً كانت يوماً ما تمارس من

---

[58]) هنري برونل، اجمل حكايات الزن، ترجمة: محمد الدنيا، مراجعة: محمود رزوقي،(الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،2005)،ص33-36.

قبل المجتمعات القديمة، ففي كل الحالات كان شبح الاموات يشكل تحدياً ليس بالهين على البشر، فالشعور بالخوف من الموتى، أو القلق من خيانة ذكراهم، أو الحب المفرط قد يتضح في حالة ذهنية ما ان شبح الميت يظهر إليه يحدثه أو يخيفه أو يضايقه، وفي كل هذه الحالات لا يستطيع الفرد بإمكانياته البسيطة التخلص منه، مما يدفعه الى اللجوء الى شخص يمتلك قدرات كبيرة يستطيع ان يتصل بالكائنات فوق الطبيعية والتي يظهر اخيراً في الحكاية الشعبية بصيغتها الاخيرة وبعد التحريف الكبير الذي اصاب الطقس بهيئة كاهن، أو حكيم، او معلم، وهذا الشخص يستطيع بقدراته غير المحدودة من التخلص من شبح الميت، بلا شك كان هذه هو الطقس الاصلي الذي مارسه الانسان قديماً والذي اختفى وتوارى تحت نمط الحكاية الشعبية. وفي كثير من بلدان العالم ما يزال الميت يحمل على الاكتاف الى قبره، وكثيرا ما يسير حاملو نعشه طريقاً متعرجاً ملتوياً لتضليله حتى لا يعود مرة ثانية. ومن العادات المألوفة حمل النعش الى خارج المنزل من غير طريق الباب المفتوح، كأن يحمل من النافذة أو من فتحة في الجدار تغلق تواً بعد خروجه. ويضع زنوج الكونغو اشواكاً على القبر في طريق العودة المؤدي الى القرية، وذلك لكي تدمى اقدام الميت، وتحول بينه وبين العودة الى بيته. واحيانا يقيمون حواجز طبيعية مثل اسوار حول القبر، أو نباتات شوكية حادة، أو حفر اخاديد عميقة في طريق العودة[59].

تعكس النصوص الاسطورية والحكايات الشعبية عن الاموات حقائق مذهلة عن مدى احساس الاحياء بالخوف من الاموات لاسيما اولئك الاموات الذين يرغبون من الانتقام من الاحياء لسبب ما، فمن بلاد الرافدين تقول الربة عشتار(Ištar) الى بواب عالم الاموات:

---

[59]) سعيد، اديان العالم،ص27-28.

"سأجعل الموتى يصعدون فيؤذون الاحياء
(و) على الاحياء يتفوق الاموات بالعدد"[60].

في ملحمة كلكامش(Gilgameš) تهدد الإلهة عشتار كبير الآلهة آنو بأنه ان لم يخلق لها الثور السماوي فإنها ستحطم ابواب العالم الاسفل وتجعل الاموات يهاجمون الاحياء:

"واذا لم توافقني(على خلق) هذا الثور
فسوف اضرب[....] مقره
ثم اوجه خطاي نحو مناطق العالم الاسفل
[واجعل] الاموات يصعدون
منها لالتهام الاحياء
واضا[عف] عدد الاموات فأجعلهم يفوقون عدد الاحياء"[61].

في اسطورة ثانية نجد الربة ايريشكيگال(Ereškigal) إلهة العالم الاسفل تهدد الآلهة بالتهديد ذاته[62].

عادة ما تُظهر التقاليد المحلية لدى الشعوب الاموات ينتقمون من الذين سببوا لهم الأذى اثناء حياتهم، ففي اسطورة من الاسكيمو تتحدث عن رجل اسمه بابيك، من عادته الخروج للصيد مع شقيق زوجته الذي يدعى ايلاك. لكن اعتاد ايلاك ان يرجع دائما بفقمة يجرها بحبل، في حين يعود بابيك خالي الوفاض، ويوما بعد يوم، زاد حسد بايك لـ ايلاك. وحدث ذات يوم ان لم يعد ايلاك على الاطلاق، والتزم بابيك الصمت لدى عودته، واخيراً عند نهاية النهار، قالت العجوز ام ايلاك: "انت قتلت ايلاك"، ولكن بابيك رد نافياً: "لا، لم اقتله". فنهضت العجوز وهي تصرخ: "انت قتلته، وسوف يأتي يوم

---

[60]) حنون، نصوص مسمارية تاريخية وادبية،ص243؛ الشواف، ديوان الاساطير،ج4،ص131.

[61]) الشواف، ديوان الاساطير،ج4،ص342-343.

[62]) المصدر نفسه،ج4،ص164، 165.

اكلك فيه حياً لأنك قتلته، انت الذي قتلته، لا غيرك". استعدت العجوز للموت، لأنها ظنت انها عندما تتحول الى شبح ستتمكن من الثأر لمقتل ابنها، فوضعت عليها غطاء من جلود الدببة، ثم جلست قرب الماء على الشاطئ وتركت المد يسحبها. اما بابيك فلم يستطع الخروج للصيد لخوفه من تهديد العجوز، ولكن بعد مدة قرر الخروج ثانية للصيد، وذات يوم وقف رجلان على الجليد قرب ثغرات تنفس الفقمات، اما بابيك فاختار موقعه بعيداً عنهما بعض الشيء، فظهر له شبح، وسمع الاخرون من تشقق الجليد صوت صرخة عالية، فتحركوا نحو بابيك، لكن الضباب كان يغطي الجليد فلم يروا شيئاً. لكنهم استنتجوا ان وحشاً هناك قد هاجم بابيك وافترسه، ففروا جميعا باتجاه البر مبتعدين عما يحدث هناك. وفي طريقهم صادفوا زلاجات صيادين كانوا يبدؤون رحلتهم، فألقوا عدتهم، وحثوا الاخرين على العودة الى بيوتهم فوراً، حتى لا يموتوا من الرعب. وعندما وصلوا الى قريتهم تجمعوا في منزل واحد، لكنهم سمعوا الشبح يدب فوق الجليد، فأسرعوا جميعاً الى المدخل واحتشدوا هناك يرتجفون من الخوف، والتصقوا ببعضهم البعض. وسرعان ما اتت الروح الشريرة مرئية على الجليد، فاستطاعوا رؤية اطراف اذنيها، وهي تزحف في طريقها، وعندما ظهرت امام المنازل لم تنبح الكلاب، ولم يجرأ احد على الاقتراب منها، اذ كانوا يعتقدون انها دباً حقيقياً، ثم اخذت المرأة عجوز تتحدث، وعندما رأى الرجال هذا اندفعوا واطلقوا حرابهم باتجاه الوحش، ثم بدأوا يقطعون لحمه فعرفوا ان جلده غطاء المرأة العجوز، وعظامه عظام بشرية، فمضوا بزلاجاتهم فوجدوا العدة التي تركوها خلفهم، وقد صارت اشلاءً، وعندما وجدوا بابيك كانت اشلاؤه في كل مكان، اذ كانت العينان

والانف والفم والاذنان كلها مقطّعة، وفروة الرأس مسلوخة، وهكذا انتقمت المرأة العجوز لمقتل ابنها ايلاك[63].

تتحدث اسطورة ثانية لدى الاسكيمو عن حالة مماثلة، اذ عاشت امرأة في كوغات، وكانت جميلةً جداً، فأتخذها رجل يدعى اتالاك زوجة له، وقد عاش في المكان نفسه رجل اخر يدعى باتوسورسواك، ابن اخ اتالاك، وكانت له ايضاً زوجة، الا انه اغرم بزوجة عمه اكثر من زوجته. وذات يوم ربيعي قرر اتالاك الخروج في رحلة صيد طويلة، وقرر اصطحاب زوجته معه، وكانا واقفين عند حافة الجليد جاهزين للانطلاق، عندما نزل اليهما باتوسورسواك، وسألهما: "هل انتما مغادران؟"، فأجاب اتالاك: "نعم". عندما سمع باتوسورسواك ذلك انقض على عمه وقتله، لأنه لم يتحمل فكرة ان تبتعد عنه المرأة. وعندما شاهدت ذلك زوجة باتوسورسواك، هربت الى والدها. اما باتوسورسواك فقد عاد الى خيمته وهو يفكر في قتل زوجته فقد ضجر منه كثيراً لكنه لم يجدها، فبحث عنها الا انه لم يجدها. ثم ذهب الى زوجة اتالاك التي اتخذها زوجة وعاش معها، لكنها ماتت بعد فترة قصيرة، وهكذا لم ينل غير القليل من المتعة مع المرأة التي حصل عليها بالجريمة. لكن باتوسورسواك بدأ يعيش معاناة من نوع خاص، ففي بداية الصيف تجمع كثير من الناس في ناتسيفيليك وبينهم باتوسورسواك، من اجل رحلة صيد، فأنقض ثعلب على اطراف معطفه، وظن باتوسورسواك انه مجرد ثعلب عادي، فبادله الهجوم، لكن لم يصبه. ثم تبين له انه ليس الا روح اتالاك الميت، التي كانت تلاحقه قبل ان تقتله، لان تعويذة اتالاك كانت ثعلباً. وبعد فترة قصيرة ضُرب باتوسورسواك حتى الموت على يد شبح اتالاك الذي اتاه

---

[63]) نود راسموسن، الكلب العملاق: قصص شعبية من الاسكيمو، ترجمة: نجاح سفر،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010)،ص50-53.

على شكل دب. وقد سمعت ابنته التي كانت في الخارج وقتها صراخه، فدخلت لتخبره بما سمعت، لكن بمجرد دخولها المنزل، نظرت، ونسيت كلياً ما اتت من اجله، لان الروح المنتقمة القت عليها السحر لكي تنسى ما شاهدت. وبعد فترة تذكرت ما شاهدته، ولكن بعد فوات الاوان، اذ وجدوا باتوسورسواك ممزقاً ارباً، اثناء محاولته الدفاع عن نفسه بقطع من الجليد لكن ذلك لم يجد نفعا[64].

ان التحرش بالموتى، أو الاساءة اليهم، سواء قبل دفنهم ام بعده يسبب غضبهم فيصبون عقابهم على اولئك البشر هم او القوى الالهية، هذا ما تحدثنا به بعض التقاليد المحلية المختلفة التي اشارت بشكل واضح الى قيام اقرباء الميت بحماية قبره عن طريق التعاويذ أو وضع قبره تحت حماية الآلهة، ففي بلاد الرافدين وضعت أدعية خاصة بالمدافن حفاظاً لها من عمليات التخريب التي قد تطالها، لذلك سعى العراقيون القدماء الى تدوين الادعية الخاصة التي تحث فيها الاحياء على عدم التعرض للمدفن وصاحبه ومحتوياته، مدونين الدعوات بالخير لمن يفعل خيراً للميت، والدعوات بالشر على من يعبث بتلك القبور، ويدل هذا على معرفة السكان مسبقاً ان التعرض لقبورهم سيسبب لهم أذى كبير، لذا نجد ان الادعية تدون اما على شواهد القبور التي عُملت على شكل مخاريط من الفخار، أو على هيئة اسطوانات طينية منقوشة، أو شكل الواح طينية يدون عليها النص المسماري المتضمن للدعاء، كما نُقشت الادعية على جدران المدفن أو غطاء التابوت الذي يضم جثة الميت. ففي نص بابلي نقرأ: "على الدوام، بمرور الازمان، في الايام المقبلة عسى من يرى هذا القبر ان لا يخربه، بل يعيده الى ما كان عليه، عسى ان يرى هذه الكتابة ان لا يزدريها بل يقول: سأعيد هذا القبر الى ما كان عليه، حتى

---

[64]) المصدر نفسه، ص54-56.

يُجزى خيراً على فعله، فيُعلى اسمه على الأرض وتُسقى روحه بالماء النقي في العالم الاسفل"[65]. ومن النماذج التي وصلتنا من تلك الادعية نص اشوري يعود تاريخه الى اواخر العصر الاشوري الحديث يتضمن ادعية وتوسلات جاء فيها: " هذا قبر شمش-ابني الداكوري الذي كان اشور-ايطل-ايلاني، ملك بلاد اشور يعطف عليه، وقد نقله من بلاد اشور الى بيت داكوري، موطنه الاصلي، وأضجعه في قبر وسط بيت دور ياكين، ان كنت مسؤولاً، ام حاكماً، ام قاضياً، ام اميراً في البلاد، لا ترتكب اثماً بحق هذا القبر والعظام الموجودة فيه، بل احفظ موضعه، وانشر عليه حمايتك الطيبة ليطيل الاله مردوك، السيد العظيم، مدة حكمك ويرعاك بحمايته، عساه ان يحفظ اسمك، وذريتك، ويهبك الحياة لأيام طويلة، اما اذا قام أي امير أو مسؤول، او حاكم، او قاضي، أو نائب عن الملك في البلاد بارتكاب الاثم بحق هذا القبر والعظام الموجودة فيه وغيّر موضعها، ونقلها الى مكان آخر، أو حرّض شخصاً اخر على الاساءة اليه، فعسى الإله مردوك، السيد العظيم ان يمحو اسمه وذريته وسلالته ووارثيه من احاديث الناس، وعسى ان يُقصّر الاله نابو من عمره، وعسى ان يبيح الاله نرگال حياته للطاعون والكوارث وسفك الدماء"[66]. وفي سوريا القديمة كان الاعتداء على الموتى له نتائجه السلبية والكارثية، ففي جبيل عُثر على ناووس الملك احيرام العائد للقرن الثالث عشر أو الحادي عشر قبل الميلاد، وعليه كتابة تعد اقدم نص بالخط الفينيقي، جاء فيه: "ناووس صنعه ايتو بعل بن احيرام ملك جبيل لـ احيرام ابيه مقراً له الى الابد؛ ان تجرأ ملك من الملوك أو حاكم من الحكام، أو قائد جيش اقتحم جبيل على فتح هذا

---

[65]) حنون، عقائد ما بعد الموت،ص266-267.

[66]) نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة،(بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة،1986)،ص267-268؛ فاتن موفق فاضل، الادعية في المعتقدات العراقية القديمة"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، المجلد:3، العدد: 8، لسنة: 2011،،ص13.

الناووس فليُزل صولجان ملكه، ويُقلب تاج ملكه"[67]. وهناك ايضا تابوت ملك صيدا تبنيت(Tabnit)، الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، المصنوع من الصوان الاسود وموجود حالياً في متحف الاستانة، ويمثل مومياء مغلفة في كفن ملتصق بها، عليه رسم إلهة راكعة باسطة جناحيها ويحتوي على كتابة جاء فيها: "انا تبنيت كاهن عشتار وملك صيدا، أرقد في هذا الناووس فلا تفتحوه، ولا تقلقوني، ان قضضتم مضجعي فلينقطع نسلكم من هذا العالم، وتُحرموا الراحة في العالم الاخر"[68]. ونظراً لأهمية القبر لدى الانباط فقد عُد حرماً مقدساً لديهم، ففي نص نبطي نقرأ فيه: "هذا هو القبر الذي بناه عائذ بن كهيل بن القسي لنفسه واولاده واعقابه ولمن يكون في يده، كتاب من يد عائذ يبيح لأي واحد يخوله عائذ في حياته ان يدفن فيه، في شهر نيسان السنة التاسعة للحارث ملك الانباط محب شعبه. ولعن ذو الشرى ومناة وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئاً آخر أو يدفن فيه احداً الا اللذين كتبت اسماءهم اعلاه، ان القبر وما كتب عليه حرم مقدس، حسب القاعدة التي يقدسها الانباط والسلاميون الى ابد الآبدين"[69]. ونحن نقرأ في نص على قبر في موقع الحجر: "هذا القبر أعدته كمكام بنت وائلة بنت هنم وكليبة ابنتها لنفسهما ولذريتهما في شهر شباط من العام التاسع للحارث ملك الانباط الذي يحب شعبه، وليلعن ذو الشرى وعرشه، واللات...ومنوة وذراعاها كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يُخرج منه جثة أو عظاماً أو يدفن فيه احد غير كمكام وابنتها وذريتهما. وكل من لا يتبع ما هو مكتوب فيما تقدم يدفع لذي الشرى وهبل ومنوة خمس شمدات وللكاهن غرامة الف من دراهم الحارث المربعة(تترا دراخمة) الا اذا

---

[67]) عبودي، معجم الحضارات السامية،ص50.

[68]) المصدر نفسه،ص265-266.

[69]) المصدر نفسه،ص839.

ابرز تفويضاً موثوقاً من يد كمكام أو كليبة ابنتها في موضوع هذا القبر. وقد صنع هذا القبر وهب اللات بن عبادة"[70].وفي اليمن عُد الإله عثتر شرقن حارس المعابد والمقابر، وإليه يُصلى ويُدعى ان تصل الهبات الى المعابد، وإليه توسل المتوسلون لحفظ قبورهم من عبث العابثين بها، المغيرين لأحجارها، والطامعين في كنوزها، ولهذا نُعت بـ عُثتر يغل أي عثتر المنتقم[71]. وكان الإله سلمن/ سلمان وهو من آلهة اللحيانيين كذلك الإله اب الف/ابو ايلاف من الآلهة التي كان من واجبها حماية القبور، وقد رُمز لـ ابي ايلاف بصورة اسد يوضع عند جانب القبر ليحميه[72].

في الفولكلور الشعبي نماذج مختلفة من حكايات محلية تشير الى انتقام الموتى من الذين يعبثون في قبورهم أو عظامهم وهذا يدل على بقاء تلك المعتقدات راسخة في اذهاب البشر رغم مرور آلاف السنين عليها، ففي حكاية انكليزية شعبية تتحدث عن رجل شاهد فتاة حسناء شابة، وغنية، وجميلة، وكانت تملك ذراعاً يمنى من الذهب الخالص، فتزوجها على الفور، وظن بذلك انه اكثر الرجال حظاً. وقد عاش الزوجان في سعاد كبيرة، رغم انه كان مغرماً بالذراع الذهبية اكثر من أي شيء اخر تملكه زوجته. واخيراً وافتها المنية، فأرتدى الزوج السواد، وعلت قسائم الحزن وجهه اثناء مماتها، ولكن رغم كل هذا، نهض في منتصف الليل وحفر القبر، وقطع الذراع الذهبية، ثم اسرع الى المنزل لكي يخفي كنزه، وظن انه لن يعلم احد بفعلته. وفي الليلة التالية، وضع الذراع الذهبية تحت وسادته، وكان على وشك النوم، حين ظهر له شبح زوجته الميتة يختال في الغرفة، التي اقتربت من حافة السرير، وازاحت الستائر، ونظرت اليه باحتقار شديد، ولكن الزوج تظاهر بأنه غير خائف،

[70]) الشرقاوي، موسوعة الآثار والحضارات القديمة، ج2، ص112-113.

[71]) جواد علي، ابحاث في تاريخ العرب قبل الاسلام، (بيروت: المركز الاكاديمي للأبحاث، 2011)، ج1، ص102.

[72]) المصدر نفسه، ج1، ص112.

وتكلم الى الشبح قائلا: "ماذا حصل بخديك اللذين كانا متوردين"، فأجاب شبح الزوجة بنبرة جوفاء: "كل شيء ذبل وتلاشى"؛ فسألها ثانية: "ماذا حصل بشعرك الذهبي؟"، فأجاب شبح الزوجة بالإجابة نفسها السابقة؛ واخيرا سألها: "ماذا حصل بذراعك الذهبية؟"، فأجاب شبح زوجته: "اخذتها انت"[(73)].

ورغم ان الحكاية لا تتحدث عن شر اوقعه الشبح بالرجل الا ان ذلك ممكن وفق تصورات اخرى، ففي حكاية شعبية ايطالية تتحدث عن رجل يدعى روبرت لا هم له سوى الطعام والشراب واللهو، اذ كان ثرياً جداً، ولم يكن لديه ما يشغل باله، وكان يسخر من الجميع، ويعامل السيدات بسوء. وقد قرر ذات يوم ان يقيم مأدبة كبيرة، فدعا اليها كل اصدقائه، وبينما كان يحضر للمأدبة خرج ليتنزه قليلاً، ومر بالقرب من مقبرة، وبينما كان يتمشى رأى جمجمة على الارض فركلها ثم توجه اليها وقال هازئاً: "انت ايضاً يمكنك ان تأتي الى مأدبتي الليلة، ما رأيك؟"، ثم تابع طريقه عائداً الى بيته. وعندما وصل الى المنزل كانت المأدبة جاهزة، وقد حضر جميع المدعوين، فجلسوا الى المائدة، واكلوا وشربوا على انغام الموسيقى، واخذوا يمرحون ويلهون. وبقوا على هذه الحالة حتى اقترب منتصف الليل، وعندما دقت الساعة الثانية عشرة، سُمع رنين جرس الباب، فذهب الخدم ليروا من بالباب، فظهر لهم شبح كبير قال لهم: "اخبروا السيد روبرت انني انا من دعاه هذا الصباح الى مأدبته". فذهب الخدم الى سيدهم واخبروه ما قاله الشبح، فقال لهم: "انا دعوته؟ كل من دعوته قد اتي، ولم ادع أي احد اخر"، فقالوا: "لو انك تراه، انه شبح مرعب"، فخطر ببال الرجل الثري انه قد يكون الرجل الميت، فقال للخدم: "اسرعوا، واغلقوا كل الابواب والنوافذ، ولا تدعوه يدخل". فأسرع الخدم واغلقوا كل

---

[73]) جوزيف جاكوبس، السمكة والخاتم: حكايات شعبية من انكلترا، ترجمة: عابد اسماعيل،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010)،ص42-43.

المداخل، لكن ما ان فعلوا ذلك حتى فُتحت الابواب والنوافذ على مصراعيها، ودخل الشبح، وصعد مباشرة الى القاعة التي كانوا يحتفلون فيها وقال: "روبرت، روبرت، الا يكفيك انك قد دنست كل شيء؟ والان وصل بك الامر للسخرية من الموتى ايضاً؟ لقد حانت ساعتك". ذُعر الجميع، واخذوا يتراكضون هنا وهناك، بعضهم من حاول ان يختبئ، والاخر من ركع على ركبتيه متوسلاً، عندها قبض الشبح على عنق روبرت وخنقه، ثم اخذه معه، وجعل منه عبرة للجميع الا يسيئوا الى الموتى مرة اخرى[74].وفي قصة ايطالية ثانية تشير الى انه في سالف الزمان كانت هناك فتاة فضولية قليلة العقل، وفي احدى الايام ذهبت والدة الفتاة الى المدينة وتركت الفتاة في المنزل بمفردها، فخرجت من المنزل وذهبت الى كنيسة كانت تتلى فيها عظة جنائزية على جثمان امرأة ثرية. فاختبأت الفتاة في حجرة الاعتراف الى ان غادر جميع الحضور في الكنيسة، وبقيت بمفردها مع جثمان المرأة الثرية. وكانت المرأة الثرية مدثرة برداء وردي اللون، وقد تزينت بحلي جميلة، وباهظة الثمن من اقراط وخواتم وغيرها، فقامت الفتاة بانتزاع كل ما كانت تتزين به المرأة، ولم تكتف بذلك بل قامت ايضا بنزع ملابسها ايضاً، حتى لم يتبق شيء سوى الجوربين. وقد حاولت الفتاة نزع الجوربين فنجحت في نزع واحد منها بسهولة، ولم تستطع نزع الاخر. وبعد جهد جهيد نزعته لكن بعد ان انتزعت ساق المرأة من مكانها. وحملت الفتاة ما سلبته، فضلا عن ساق المرأة الى المنزل، وخبأتها في صندوق، واحكمت اغلاقه جيداً. وعند حلول منتصف الليل تسللت جثة المرأة الثرية الى منزل الفتاة وطرقت الباب، فأجابت الفتاة قائلة: "من الطارق؟"، ردت عليها الجثة قائلة: "هذه انا، اعيدي الي ساقي وجوربي". لكن الفتاة لم تعرها أي

---

[74]) توماس فردريك كراين، الخال كابرينو: حكايات شعبية من ايطاليا،ترجمة: عاصم مظلوم،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، 2010)،ص44-45.

انتباه، وفي اليوم التالي قامت الفتاة بتحضير وليمة ودعت صديقاتها لقضاء الليل في منزلها. وبالفعل لبت الصديقات الدعوة، وبعد تناول الطعام خلدن جميعا الى النوم، وعند منتصف الليل عادت جثة المرأة، واخذت تطرق الباب مجدداً مكررة ما طلبته في الليلة السابقة. في تلك الاثناء لم تلحظ الفتاة الجلبة التي احدثتها جثة المرأة الثرية، لكن صديقاتها الذين دب الرعب في قلوبهن لذن بالفرار على الفور. وعادت المرأة الثرية الى محاولتها من جديد عند منتصف الليلة الثالثة؛ وفي الليلة الرابعة استطاعت الفتاة ان تقنع واحدة فقط من صديقاتها بأن تمضي الليلة عندها. لكن في الليلة الخامسة، وعندما كانت الفتاة بمفردها في المنزل، عادت جثة المرأة الثرية من جديد، واقتحمت المنزل متجهة الى الطابق العلوي حيث كانت الفتاة ترقد في سريرها، واجهزت عليها، ومن ثم اتجهت نحو الصندوق واستعادت ساقها وجوربها، ومضت في طريقها عائدة الى مثواها[75]. بلا شك تعكس هذه القصص تقاليد قديمة حول الخوف من الموتى، وكيف ان التحرش بهم، يجلب على ذلك المتحرش الموت. لكن مع ذلك يمكن ان نلاحظ تصوراً اخر حول التحرش بقبور الموتى وكيف ان الحالة قد تكون معكوسة وهي عندما يضطر الميت بالتوسل بالأحياء من اجل التوقف عن الاساءة اليه. فالبطل الطروادي اينياس اثناء وجوده في تراقيا صادف تل على قمته جذوع شجيرات كثيفة واشجار ريحان قد علاها حشد من رؤوس الحرب، وبينما كان يحاول اقتلاع النبات الاخضر من جذوره كي يكسو المذابح التي صنعها لتقديم القرابين الى الآلهة بأغصان مورقة، رأى شيئاً عجيباً، فما ان انتزع اول شجرة من جذورها حتى تساقطت منها قطرات دم قاتم اللون، وتجلطت فلطخت التربة. ومع ذلك حاول اينياس مرة اخرى وانتزع غصناً صلباً من شجرة ثانية، عاقداً العزم على اكتشاف ذلك السر

---

[75]) المصدر نفسه، ص46-48.

الدفين، فانبثقت مرة اخرى دماء قاتمة اللون من لحاء الشجرة الثانية. وسرعان ما انقض بعنف اكبر على الشجرة الثالثة محاول اجتثاثها، وركبتاه تضغطان بقوة فوق الرمال، لكنه هذه المرة سمع من اسفل التل انين، وتردد في اذنه صوتاً يقول: "يا لشقائي! لم تمزقني يا اينياس؟ اعفِ عني، وانا في قبري، ولتُبعد الدنس عن يديك الطاهرتين، فلست بغريب عنك، بل انني سليل طروادة، كما ان هذه الدماء لا تنساب من جذع شجرة اصم. آه فلتغادر هذه الارض القاسية، ولتبتعد عن الشاطئ الشره، فإنا پولودوروس، ها هنا قد غطى جسدي الممزق محصول حديدي من الاسلحة، ونما عليه، فنبت في صورة حراب حادة"[76].

ان وجود القبر أو عالم اخر خاص بالموتى لا يعني ان هناك امكانية فصل الاموات عن الاحياء تماماً، كما لا يعني في كل الاحوال قطع الاتصال مع الاموات كما رأينا اعلاه، وان التخلص من خطر اشباح الموتى واضح بشكل جيد، وان العديد من البيانات المتوفرة تؤكد هذه المسألة؛ وتتناقل الشعوب عادة اقاصيص كثيرة عن بقاء الاتصال مفتوحاً بين الموتى والاحياء وكيف ان الموتى يشكلون خطراً حقيقياً عليهم، ففي اسطورة من نيجيريا تتحدث عن رجل من مدينة كوبهام اسمه افيونغ ايديم، وكان له ابنة اسمها افيونغ، وقع جميع رجال البلد في حبها، ورغبوا في الزواج منها، الا انها رفضتهم جميعا على الرغم من توسلات والديها والحاحهما، اذ كانت افيونغ متعجرفة جداً، حتى انها قالت انها لن تتزوج الا من اوسم شبان البلاد واشدهم بأساً. وكان معظم الرجال الذين اراد والدها تزويجها منهم طاعنين في السن وقبيحين، على الرغم من ثرائهم الفاحش، فبقيت الابنة تعصي اوامر والديها زارعة بذلك الحزن في

[76]) ڤيرجيليوس، الانيادة، ترجمة: عبد المعطي شعراوي واخرون،(القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية،2011)،ج1،ص166-167.

قلبيهما. فسمع هيكل عظمي يعيش في ارض الارواح بجمال الفتاة تلك، ورغب في الحصول عليها، فقصد اصدقائه واستعار منهم افضل ما لديهم من اعضاء الجسد؛ فأخذ من الاول رأساً جميلاً، ومن الثاني جسماً، اما الثالث فأعطاه ذراعين قويين، والرابع ساقيين قويتين، حتى اصبح في النهاية رجلاً وسيماً. بعد ذلك غادر ارض الارواح واتجه الى سوق مدينة كوبهام حيث رأى افيونغ فوقع في غرامها، وحين رأت افيونغ انه يفوق جميع ابناء القرية وسامة وقوة وقعت ايضا في غرامه، فدعته الى منزلها؛ سر الهيكل العظمي ايما سرور، وقبل دعوة افيونغ الى منزلها. عند وصولهما الى المنزل، عرّفت الفتاة والديها عليه ولم يتردد هو في طلب يدها للزواج. في البداية رفض الوالدان اذ لم يرغبا في تزويج ابنتهما من غريب، لكنهما وافقا في النهاية. عاش الهيكل العظمي يومين مع افيونغ في منزل والديها، وبعد ذلك اعرب لهما عن رغبته في اصطحاب زوجته الى بلاده البعيدة. انصاعت الفتاة لرغبة زوجها لشدة اعجابها بوسامته، وقد حاول والداها اقناعها بعدم الذهاب، لكنها اصرت على رأيها، وقررت الذهاب مع زوجها، ثم انطلقا معاً. بعد مرور اياماً قليلة عن رحيلهما قصد الوالد مشعوذا واكتشف ان زوج ابنته ينتمي الى ارض الارواح، مما يحتم موت الابنة، فغرق الوالدان في الحزن والحداد عليها. وبعد ايام عدة من السير اجتازت افيونغ والهيكل العظمي الحدود بين ارض الارواح وبلاد البشر، وما كادت رجلاهما تطأن ارض الارواح حتى سارع رجل نحو الهيكل العظمي وطالبه بساقه، ثم اتى رجل اخر وطالب باستعادة رأسه، وبعد ذلك جاء رجل ثالث وطلب استعادة جذعه وهكذا دواليك، حتى عاد الزوج في غضون دقائق معدودة هيكلاً عظمياً قبيحاً. ارتعبت الفتاة وارادت العودة الى منزلها لكن الهيكل العظمي لم يسمح لها بذلك بل امرها بمرافقته. وعند وصولهما الى منزله، استقبلتهما والدته وهي امرأة طاعنة في السن عاجزة عن القيام بأي

شيء. حاولت افيونغ مساعدتها بشتى الوسائل، فكانت تعد لها الطعام، وتحظر لها الماء والحطب، فشعرت العجوز بالامتنان لاهتمام افيونغ بها. وذات يوم اعربت العجوز عن اسفها لافيونغ، فالناس في ارض الارواح هم جميعا من اكلي لحوم البشر، وعندما يعلمون بوجود احد البشر في بلادهم فسيسرعون الى قتله واكله، وبالتالي حرصت على اخفائها والاعتناء جيداً بها، ووعدتها بأن تعيدها الى بلادها في اسرع وقت ممكن مقابل وعد من افيونغ بإطاعة والديها، فوافقت افيونغ على شرط العجوز. واخيراً حضرت العجوز تعويذة فاستدعت الرياح لتحمل افيونغ وتعود بها الى منزلها، وسرعان ما عادت الفتاة الى منزل والديها[77]. وان اسطورة نيجيرية ثانية تُظهر كيف ان اشباح الموتى تؤذي الاحياء، والاسطورة تتحدث عن رجل يدعى ايونغ كيتا كان عدد من عبيده قد تأمروا عليه، فطلب من المشعوذين والسحرة ان يكتشفوا من من العبيد اسود القلب وقد يقتله عندما يصبح حاكماً للبلاد(لأنه وارث عرش ابيه المدعو انكيتا حاكم إند)، فتشاور المشعوذون فيما بيهم وقالوا لـ ايونغ ان خمسين من عبيده سحرة وسيحاولون قتله. فما كان من ايونغ الا ان سجن هؤلاء العبيد، وحاكمهم مستعيناً بفاصوليا ايسير السامة ليرى ان كانوا سحرة ام لا. لكن احد منهم لم يتمكن من تقيؤ الفاصوليا فماتوا، وتم اعلانهم سحرة، ثم دفنوا على الفور. وعندما رأى باقي العبيد ما حصل جاءوا الى ايونغ كيتا وطلبوا منه السماح ووعدوه بأن يخدموه بإخلاص. ولكن العبيد الخمسين الذين دفنوا لم يرقدوا بسلام وتسببوا لـ ايونغ كيتا بالكثير من المتاعب، فمرض بعد فترة، وارسل مجدداً بطلب المشعوذين الذين قالوا له ان السحرة بالرغم من قتلهم ودفنهم استطاعوا الخروج في الليل ليمتصوا دمه، وهذا ما ادى الى سقمه. واضاف المشعوذين قائلين: "لسنا الا ثلاثة مشعوذين، ويجب ان تحضر سبعة

[77]) داريل، الصياد المحظوظ: حكايات شعبية من نيجيريا الجنوبية،ص51-54.

غيرنا حتى يصبح عددنا عشرة وهو الرقم السحري". وعندما اكتمل عدد المشعوذين نبشوا جثث العبيد الخمسين من تحت الارض فوجدوا انها ما زالت كما هي، فأمر ايونغ كيتا بإشعال النار واحراق الجثث، الواحدة تلو الاخرى. بعد ذلك قدم ايونغ للمشعوذين هدية كبيرة، ولم يمض الكثير من الوقت حتى شفي واستعاد املاك والده واستلم حكم البلاد[78].

---

[78]) المصدر نفسه،ص138-140.

5

حكمة الموتى

ان تقاليد الشعوب لا تشير في كل الحالات ان الاموات يشكلون خطراً دائماً على الاحياء، بل العكس احياناً، ويمكن ان نقرأ عنه في بياناتنا المتوفرة، اي ان الاموات يظهرون كأصدقاء للأحياء، لا يهدفون الى ايذائهم بل الى مساعدتهم، فهذا المجلس الفارسي يطلب من الملكة اتوسسا ارملة داريوس الكبير ان تتضرع للأخير كي يمنحها هي وابنها السعادة: "ثم من أعماق نفسك، تضرعي الى داريوس زوجك، الذي تقولين انك رأيته في الحلم هذه الليلة، ألا يرسل أليك من الأرض إلا السعادة لك ولأبنك، وان يحتفظ بما عدا ذلك مُلغى الى الأبد في الظلام السفلي"[79]. وعادة ما تكون مساعدة الأموات اما عن طريق الاحلام، كما تشير الى ذلك اسطورة نيجيرية تتحدث عن ايونغ كيتا ايضاً توفي والده عندما كان عمره 10 اعوام، وذات ليلة لما كان الفتى ايونغ كيتا نائماً في شجرة مجوفة، راوده حلم رأى فيه والده الذي اخبره عن موضع في الارض فيه كنوز ثمينة[80]. أو قد يظهر الموتى كأشباح تشارك الاحياء حياتهم أو تقدم لهم المساعدة، ولعل اكثر الخرافات الاسكتلندية غرابةً وغموضاً تتمثل في ايمانهم بعودة الموتى بشكل دوري الى بيوتهم، ليس كأشباح تظهر في الليل، ولا يراها غير الشخص الوحيد في الظلام، بل ككائنات اجتماعية تعود لتنظم الى اجتماع العائلة، وتشاركهم احتفالاتهم، أو وفق العبارة القديمة المختصرة، تعود: "لتأكل وترقص مع الاحياء"[81]. وقد لا يقتصر هذا التصور على

---

[79]) عبد الرحمن بدوي، تراجيديات اسخولوس،(بيروت: المؤسسة العربية للنشر،1996)،ص139؛ انظر ترجمة مشابهة للنص في: امين سلامة، مسرحيات ايسخولوس،(القاهرة: مكتبة مدبولي،1989)،ص90.

[80]) داريل، الصياد المحظوظ: حكايات شعبية من نيجيريا الجنوبية،ص136.

[81]) جورج دوغلاس، الحارس الامين: حكايات شعيبة من اسكتلندا،ترجمة: ريما الجباعي،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010)،ص21.

الاسكتلنديين، بل حتى في روسيا القديمة نقرأ عن اقاصيص حول عدم ايذاء الاموات للأحياء، وهذا ما يمكن ان نعرفه من حكاية شعبية في روسيا تتحدث عن شيخ حكيم له ثلاثة اولاد هم: توم، وباكوم، وايفانوشكا، وقد عاش هذا الشيخ مع اولاده حتى حانت اخيرا ساعته، واقترب من شفا الموت، فنادى على اولاده الثلاثة وقال لهم: "يا فلذات كبدي، دنت ساعتي، ويجب عليكم ان تتموا رغبتي. على كل واحد منكم ان يأتي الى قبري، ويمضي ليلة واحدة معي: انت يا توماس، تأتي في الليلة الاولى، وانت يا باكوم في الليلة الثانية، وانت يا ايفانوشكا فلك الليلة الثالثة". وعد الاخوان الكبيران بأن ينفذا وصية والدهما، اما الثالث فلم يعده واكتفى بحك رأسه فحسب. مات الشيخ، ودفن، ثم تذكر ابنائه وصيته، والتي تقضي بأن يذهب توماس في الليلة الاولى الى القبر، لكنه كان شديد الكسل، أو على الارجح كان خائفاً، فقال لأخيه الصغير ايفانوشكا: "علي ان استيقظ باكراً غداً صباحاً، اذ يجب ان ادرس الحنطة، فأذهب عوضاً عني الى قبر والدنا". وافق ايفانوشكا، واخذ معه قطعة من خبز الجاودار الاسود، وذهب الى القبر، واضطجع قربه ونام. وعندما اعلنت الكنيسة حلول منتصف الليل؛ صفّرت الرياح، ونعق البوم في الاشجار، فُتح القبر، وخرج الشيخ وسأل: "من هناك؟"، اجابه ايفانوشكا: "هذا انا"، فقال الوالد: "حسنا يا ولدي العزيز، سوف اكافئك لطاعتك، ثم عاد الشيخ الى قبره، وذهب ايفانوشكا الى المنزل، وعندما سأله اخواه عما حدث لم يخبرهم شيئاً. وفي الليلة الثانية حان دور باكوم للذهاب الى قبر والده، ويبدو انه كان خائفاً ايضاً فقال لأخيه الصغير: "سيكون يومي مزدحماً غداً، فأذهب عوض عني الى قبر والدنا". فوافق ايفانوشكا، واخذ معه قطعة فطيرة السمك، وذهب الى القبر ونام. وعند منتصف الليل فُتح القبر وخرج الشيخ مجدداً، ودار بينهما الحديث ذاته، وعندما عاد ايفانوشكا الى المنزل لم يخبر اخواه بما حدث. وفي

الليلة الثالثة حان دور ايفانوشكا، الذي ذهب الى القبر واخذ معه بضع كعكات، وارتدى معطفاً من فراء الماعز. وعند منتصف الليل خرج والده من القبر، واخبره بأنه سيكافئه على طاعته وهناك صرخ بصوت هادر: "انهض ايها الحصان الكستنائي الاسرع من الرياح، اظهر امامي عند حاجتي الى الخدمة، قف على قوائمك كما العشب في وقت العاصفة". وسرعان ما ظهر حصاناً يعدو، فتهتز الارض تحت حوافره، وتلتمع عيناه كنجمتين، ويخرج الدخان من فمه، واذنيه على شكل غيمة. ثم تكلم الحصان بصوت بشري: "بم تأمرني؟"، فتقدم الشيخ منه، وفجأة دخل في اذنه اليمنى، ليخرج منها بعد قليل شاباً وسيماً وقوياً، لم ير العالم مثله من قبل، وقال: "الان اسمعني يا بني، اهبك هذا الحصان، وانت يا حصاني وصديقي الامين، عليك ان تخدم ابني كما سبق وخدمتني"، ثم سرعان ما عاد الشيخ الى قبره[82]. وعادة ما يذهب الاحياء لاستشارة الاموات في مقابرهم للحصول على نصحهم، لأن الاموات برأي الاقدمين هم اكثر تنويراً من الاحياء، اذ ينظر الناس الى الاموات وكأنهم يمتلكون الالغاز والخفايا، فعلى مقربة من اضرحة الاسلاف يذهب الناس من اجل البحث عن النبوءة، والى مدافن الاجداد يسعى الشعراء من اجل التماس الالهام، فالعالم الاخر هو موطن العلم والحكمة، وان سيد العالم الاخر يحمل المعرفة الكلية، اما الاموات فلديهم العلم بالمستقبل، علماً بما سيكون في الايام المقبلة[83]. فبعد هزيمة الفرس في معركة سلاميس يسعى الحكماء الى الحصول على نصيحة الملك الميت داريوس:

"ليكن واجبك ايتها السيدة الملكية، مرهوبة فارس،

ان تصبي سكيبة النبيذ في الأرض ذات القصور؛

---

[82]) فيرا دي بلومينتال، الجبل الذهبي: حكايات شعبية من روسيا، ترجمة: مايسة عواد،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010)،ص66-69.

[83]) الياده، التنسيب والولادات الصوفية،ص86، 128.

بينما نستدعي نحن بالأناشيد
مرشدي أرواح الموتى، للصالح.
اسمع يا ملك الظلال، وانتم يا جميع القوات السفلى،
هيرميس، والأرض: ارسلوا هذه الروح(روح داريوس) الى النور؛
لأن داريوس وحده،
قد يعرف بما فوق حكمتنا،
علاجاً ما، يرينا كيف ننقذ أرضنا"[84].

وهناك تخرج روح داريوس من العالم الاسفل وبعد حوار طويل بينها وبين المجلس الفارسي يخبرهم داريوس بحكمته:

"لا تتخذوا أي عمل، حتى ولو كانت قوة فارس ضعف
ما كانت عليه
لا تستخدموا أية اسلحة ضد ارض هيلينية.
لن تستطيعوا النصر؛ والأرض نفسها ستقاتل الى جانبهم"[85].

واينياس نزل الى العالم الاسفل لمقابلة والده انخسيس من اجل معرفة المستقبل: "هلم الآن، فسوف احدثك عن المجد الذي سوف يتابع السلالة الدردانية، وعن الذرية التي سوف ينتظرها شعب ايطاليا، انها نفوس لامعة، وسوف ترث اسمنا، وسأخبرك بما كُتب عليك في قدرك المسطور"[86]. ثم قاد انخسيس ابنه وطاف به في كل ربوع العالم الاخر ثم بشره بأمجاد المستقبل، محذراً من حروب قادمة عليه ان يخوض غمارها، وعلمه ما ينبغي له ان يعلم

---

[84]) سلامة، مسرحيات ايسخولوس،ص106؛ انظر ترجمة أخرى للنص في: بدوي، تراجيديات اسخولوس،ص150.

[85]) سلامة، مسرحيات ايسخولوس،ص113؛ انظر ترجمة أخرى للنص في: بدوي، تراجيديات اسخولوس،ص155.

[86]) ڤيرجيليوس،الانيادة،ج1،ص307.

عن شعوب لاورنتم ومدينة لاتينوس، وكيف يتحمل أو يتجنب كل مشقة[87].

واحياناً تظهر اشباح الاموات الى الاحياء وهم يقدمون اليهم النصح والمساعدة، فهذا البطل الطروادي اينياس اثناء اقتحام الاغريق لمدينة طروادة يظهر له شبح هيكتور الميت ويخبره بالمصير التعس للمدينة قبل ان يعلم اينياس، ويطلب منه التوجه للبحث عن مدينة اخرى لإنشاء طروادة جديدة، لكنه ينبأه بالمستقبل وكيف انه سينشئ هذه المدينة بعد تجوال عبر البحار: "آه يا سليل الآلهة، عليك بالفرار، عليك ان تُنقذ نفسك من تلك النيران، لقد استولى الاعداء على المدينة، ان طروادة تنهار من عليائها. لم تعد طروادة أو برياموس، في حاجة الى اكثر من ذلك، فإن كان من المستطاع الدفاع عن طروادة بمغامرات جريئة، فإن هذه المغامرات قد حدثت فعلاً اثناء الدفاع عنها. ان طروادة تضع اليوم مقدساتها وآلهتها في حمايتك، فأجعل منهم رفقاء وشركاء لك في المصير، ابحث لهم عن اسوار عظيمة، عن مدينة عظيمة، تقيمها اخيراً بعد تجوال عبر البحار"[88]. كما ان هذا البطل يظهر له شبح زوجته كريوسا وينبأه بمستقبله: "سوف تطول سنوات منفاك، وسوف ترتاد البحار الواسعة ذهاباً واياباً مثل راكب المحراث، وسوف تصل الى الاراضي الهيسبيرية، حيث يجري نهر التيبر بتيار هادئ بين الاراضي الزراعية الخصبة الآهلة بالسكان، سوف تجد في انتظارك الجاه والسلطة وزوجة من سلالة الحكام"[89]. كما ظهر الى اينياس شبح والده اانخسيس كي يقدم له النصح: "يا ولدي، يا اعز عندي من الحياة، عندما كنت على قيد الحياة. يا بُني ايا من تطاردك اقدار طروادة، اني اتيت الى هنا تنفيذ لأوامر چوبيتر، الذي ازاح النار عن الاسطول(وكانت النار قد اندلعت في الاسطول الطروادي)، وبعث في آخر

---

87) المصدر نفسه، ج1، ص312.

88) المصدر نفسه، ج1، ص132.

89) المصدر نفسه، ج1، ص152.

الامر برحمته من السموات العلي. فلنعمل بالنصائح الغالية التي قدمها لك الآن ناوتيس العجوز، فلتصحب معك الى ايطاليا صفوة الشباب واشجعهم قلباً، اذ ان عليك ان تُخضع قوماً خشنين غير متحضرين في اقليم لاتيوم. والآن، لتقترب اولاً من مقر الإله ديس في العالم الاسفل، ولتذهب الى اعماق اڤيرنوس، وتطلب، يا بُني، هناك مقابلتي، اذ ان تارتاروس اللعين لا يظللني بظلاله الكئيبة، بل انني اقطن إليسيوم وسط جمع طيب من الاتقياء. هناك سوف ترشدك سيبولا الطاهرة بواسطة دماء غزيرة لأغنام سوداء. عندئذ سوف تعلم كل شيء عن ذريتك، وتعرف أي مدينة سوف تكون من نصيبك. والآن وداعاً، فإن الليل الرطب يوشك ان ينتصف، واني احس بأنفاس المشرق القاسي يقترب فوق خيوله اللاهثة"[(90)].

في اسطورة نيجيرية تتحدث عن شاب يدعى إديت إتيم قامت التماسيح اثناء استحمامه في احدى الانهار بإمساكه واخذه معها الى منزلها في المياه العميقة، فتوجهت امه افيونغ اني الى قبر زوجها لتستشير روحه بما يمكن فعله لاستعادة ابنها[(91)]. وتتحدث احدى القصص الشعبية التركية عن حالة مماثلة، وتقول الحكاية أنه: عاش في الزمان الغابر سلطاناً لم ينجب اطفالاً، ولما كان يتجول ذات يوم مع وزيره رأى تنيناً بصحبة خمسة أو ستة تنانين صغيرة، فأشتكي السلطان قائلا: "آه يا الهي! لقد مننت على هذا المخلوق بكل هذا العدد من الاولاد، ولو إن واحداً من أبناء ذلك التنين قد نقص، وأنك يا الهي قد وهبتني طفلاً واحداً". واصلا سيرهما حتى حل الظلام فعاد الى القصر، ومر الوقت ووقعت زوجة السلطان في إحدى الليالي مريضة جداً، فأرسل في طلب الممرضات البارعات الى كل مكان على وجه السرعة. ولم

---

[90]) المصدر نفسه، ج1، ص262.

[91]) داريل، الصياد المحظوظ: حكايات شعبية من نيجيريا الجنوبية، ص163-164.

تكن هناك صعوبة في العثور على واحدة، لكن المرأة ما ان وصلت الى جوار سرير المريضة حتى وقعت ميتة؛ وبسرعة جيء بممرضة أخرى، لكنها ماتت هي ايضا بمجرد وصولها، وباختصار كل أولئك الممرضات اللاتي أستُقدمن لمعالجة السلطانة وقعن صريعات بمرض غامض. وكان في القصر الملكي خادمة معها ابنة زوج تكن لها كراهية شديدة، ففكرت ان هذه الحادثة المتعلقة بالسلطانة بأنها فرصة للتخلص من أبنة الزوج قد واتتها. وما إن سمعت بأن كل الممرضات قد متن، حتى توجهت مباشرة الى السلطان وقالت: "سيدي، إن لي أبنة بارعة في فن التمريض، ان أنت سمحت لها أن تأتي، فإن السلطانة قد تحظى بفرصة الشفاء". فأرسل السلطان عربة للمجيء بالفتاة، لكن الفتاة كانت جاهلة تماماً بأمور التطبيب، وسألت أباها عما يجب ان تفعله، فأجابها ابوها قائلا: "لا تخافي، يا أبنتي، في طريقك الى القصر توقفي قليلا عند قبر أمك، وادعي لها، لأن الله دائما يساعد أولئك الواقعين في محنة، بعد ذلك، توجهي واثقة من نفسك الى القصر". فصعدت الفتاة الى العربة، واتجهت الى قبر امها، وذرفت دموعاً غزيرة من جراء حزنها ويأسها، وبينما تتوسل الى الخالق ليساعدها سُمع صوت صادر عن القبر يقول: "عندما تصلين الى السلطان، أطلبي ابريقاً من الحليب، بعد ذلك أذهبي الى السلطانة". عادت الفتاة الى العربة، ووصلت الى القصر، وطلبت ابريقاً من الحليب، وأخذته ودخلت حجرة السلطانة، وسرعان ما عادت حاملة أنباء ولادة امير صغير، يشبه شكله شكل التنين، فلم يسر السلطان لهذا النبأ، لكنه حاول اقناع نفسه الان بأنه قد صار وريثاً، وللاحتفال بهذه المناسبة الميمونة ذُبحت الخراف وحرر العبيد. ولم يمضي وقت طويل حتى جاء الوقت ليبدأ الامير تعليمه، فاستُدعي المربون الذين كانوا يُقتلون الواحد بعد الاخر بواسطة التنين من قبل ان يحظوا بفرصة للبدء في تعليمهم، وبهذه الطريقة لم يبق أي مربٍ في

البلاد. وبسماعها ذلك ذهبت زوجة الاب مرة ثانية الى السلطان وقالت: "مولاي وسلطاني، الفتاة التي ساعدت السلطانة في ولادة التنين تستطيع ايضاً ان تقدم التعليم المطلوب للأمير التنين". أمر السلطان بإحضار الفتاة، وقبل مجيئها الى القصر الملكي، زارت قبر امها، وبينما تصلي وتطلب من الله الحماية والحرية، امتدت إليها يد امها خارجة من القبر وقدمت لها عصا قائلة: "خذي هذه العصا يا ابنتي، وإن هاجمك التنين، ليس عليك الا ان تلوحي بهذه العصا وسوف يتراجع". وهكذا أخذت الفتاة العصا، واتجهت نحو القصر، وعندما اقتربت من ولي العهد لتقديم له تعليمها، حاول ان يعضها، لكنه ما ان رأى العصا حتى أرتد عن قصده. وسرعان ما أظهرت الفتاة ان تعليمها وجهدها قد اتيا بنتيجة مثمرة لدرجة إن السلطان كافأ بكومة من الذهب، وسمح لها ان ترجع الى بيتها. ومرت السنوات، وصار الامير التنين في سن الزواج، وفكر السلطان بالأمر وقلبه حزين، وأنتهى الى إنه لا مناص من العثور على زوجة لابنه الوريث. واخيرا عثر على عروس للأمير، وتم العرس، غير ان التنين التهم عروسته ليلة الزفاف، وكان هذا هو حظ العروس الثانية، وباختصار كان مصير كل عروس زُفت إليه، أن تُقتل وتُلتهم. فجاءت زوجة الاب وقالت الى السلطان: "مولاي وسلطاني، الفتاة التي ساعدت في ولادة الامير، وفي تعليمه يمكنها ايضا ان تكون زوجة مناسبة". سُر السلطان للاقتراح، وعلى الفور أرسل في طلب الفتاة، وقبل الامتثال للاستدعاء الملكي، ذهبت الى قبر أمها، فسمعت صوت امها من القبر: "يا أبنتي، خذي جلد القنفذ هذا واجعليه قناعاً، وحين تذهبين الى التنين سيحاول أن يؤذيك فيجرحه الشوك. عندئذ سيقول لك: انزعي القناع، فأجيبيه: سأنزع القناة إن أنت خلعت ملابسك. وعندما ينزع ملابسه، خذيها واقذفيها في النار، حينذاك سيفقد شكله التنيني ويظهر في شكله الانساني". وفي الوقت المحدد، وصلت الفتاة الى القصر،

واقتيدت الى الجناح الخاص بالأمير التنين حيث حفل الزواج، ونفذت الفتاة ما امرته به أمها فظهر الامير بشكله الانساني[92].

تكشف هذه الحكايات التي قد تبدو للبعض مدى سذاجتها كيف ان الاحياء يرون في الموتى منتهى الخبرة التي قد تساعدهم في تجاوز المشاكل، بمعنى انها تعكس مدى الاحترام الشديد الذي يكنه الاحياء للموتى. ويظهر الموتى وهم يقدم المساعدة للبشر كهياكل عظمية كما نقرأ في اسطورة نيجيرية تتحدث عن ملك يدعى اودو اوبوك اودوم يعيش في مدينة ايتام غضبت عليه شجرة سحرية عندما حاول ان يقطعها، وادخلت في عينه كسرة خشب مما سبب له الم كبير، وعندما لم تنفع القرابين التي قدمها الملك الى الجن الذي يسكن الشجرة، ولم ينفع كذلك كل المستحضرات التي حضرها المشعوذون في شفاء عينه، اخبره المشعوذون ان رجلاً واحداً قادراً على شفائه لكنه يعيش في ارض الارواح، فطلب الملك منهم ان يرسلوا هذا الرجل اليه، وبالفعل جاء الرجل في اليوم التالي. فقال الرجل-الروح للملك: "قبل ان افعل أي شيء لعينك ماذا ستعطيني؟"، فأجاب الملك اودو: "سأعطيك نصف مدينتي مع سكانها، فضلا عن سبع ابقار وبعض المال". لكن الرجل-الروح رفض عرض الملك، فما كان من الملك المتألم الا ان قال له: "اطلب ما تريد وانا موافق". فقال الرجل-الروح: ان الاجر الوحيد الذي سيقبل به هو ابنته. فبكى الملك بكاءً مرا، وطرد الرجل مفضلاً الموت على اعطائه ابنته. لكنه في تلك الليلة تألم اكثر من أي وقت مضى، حتى رجته رعيته ان يرسل بطلب الرجل-الروح مجدداً، وان يعطيه ابنته، وعندما يُشفى وتتحسن حاله يمكنه ان ينجب ابنة اخرى، لكنه ان مات فسيخسر كل شيء. ارسل الملك بطلب الرجل-

---

[92]) اجناز كانوز، المرآة المسحورة: حكايات شعبية من تركيا، ترجمة: عبد الوهاب المقالح،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،2010)،ص34-38.

الـروح الـذي حضـر على جناح السـرعة، وبحـزن واسى شـديدين سـلمه الملك ابنته. خرج الرجل-الروح الى الغابة، وجمع بعض اوراق الشجر، ونقعها في الماء وطحنها، ثم دهنها على عين الملك، وقال له انه عندما يغسل وجهه في الصباح سيتمكن من رؤية ما كان يؤلم عينيه. حاول الملك اقناع الرجل-الروح بأن يبيت عنده الا انه رفض وغادر في الليلة نفسها الى ارض الارواح، اخذا معه ابنة الملك. وقبل بزوغ الفجر، نهض الملك وغسل وجهه، فسقطت من عينه كسرة خشب من الشجرة السحرية، واختفى الالم وشفي الملك. وعندما عاد الملك الى رشده ادرك انه ضحى بأبنته مقابل عين من عينيه، فأمر ان يعم مملكته الحداد لمدة ثلاثة اعوام. في العامين الاولين من الحداد، وضع الرجل-الروح ابنة الملك في غرفة السمنة، وكان يمدها بالطعام، الا ان هيكلاً عظمياً كان في المنزل قال لها الا تأكل لان الرجل-الروح يريدها ان تسمن لا ليتزوجها بل لياكلها. فما كان من ابنة الملك الا ان راحت تعطي الطعام للهيكل العظمي يوماً بعد يوم، فيما تكتفي هي بأكل الطبشور. ومع اقتراب نهاية العام الثالث جاء الرجل-الروح ببعض اصدقائه ليروا ابنة الملك، وقال لهم انه سيقتلها في اليوم التالي لياكلها. وعندما استيقظت ابنة الملك في الصباح احضر لها الرجل-الروح طعامها كالمعتاد، الا ان الهيكل العظمي الذي اراد الحفاظ على حياتها، والذي سمع ما قاله الرجل-الروح، طلب من الفتاة الدخول الى الغرفة واخبرها بما سيحدث خلال النهار. اعطت ابنة الملك الطعام للهيكل العظمي، فقال لها: "عندما يغادر الرجل-الروح الى الغابة مع اصدقائه من اجل التحضير للمأدبة، عليك ان تهربي الى منزل والدك". ثم اعطاها دواءً يمدها بالقوة طيلة النهار، كما اعطاها الارشادات اللازمة حول الطريق الذي يتعين عليها ان تسلكه، وقال لها انها عندما تصل الى مفترق طريقين سيلزمها ان تسكب بعضا من الدواء على الارض حتى يصبح الطريقان واحداً. كذلك طلب الهيكل العظمي

من ابنة الملك ان تغادر من الباب الخلفي، وتذهب عبر الغابة حتى تصل الى نهاية المدينة حيث ستجد الطريق، كما قال لها انها لو صادفت ناساً على الطريق فمن الافضل ان تمر بالقرب منهم بصمت لأنها ان القت التحية عليهم فسيعلمون انها غريبة عن ارض الارواح وقد يقتلونها، كما نصحها بألا تلتفت الى احد ان ناداها بل ان تكمل طريقها حتى تصل الى منزل والدها. شكرت ابنة الملك الهيكل العظمي على نصائحه، ثم انطلقت في سبيلها، وعندما وصلت الى نهاية المدينة وجدت الطريق، فركضت ثلاث ساعات حتى وصلت في النهاية الى المفترق حيث وجدت امامها طريقين فسكبت القليل من الدواء تماما كما قال لها الهيكل العظمي، فأصبح الطريقان واحداً، وانطلقت ابنة الملك في سبيلها من دون القاء التحية على احد أو الالتفات الى احد من الاشخاص الكثيرين الذين نادوها. في هذا الوقت كان الرجل-الروح قد عاد من الغابة الى المنزل، واكتشف غياب ابنة الملك، فسأل الهيكل العظمي عن مكانها، فأجابه انها غادرت من الباب الخلفي لكنه لا يعرف الى اين. عرف الرجل-الروح ان الفتاة عادت الى منزلها فلحق بها على جناح السرعة، وهو يصرخ ويناديها. وعندما سمعت الفتاة صوت الرجل-الروح اسرعت بقدر ما امكنها حتى وصلت اخيراً الى منزل والدها[93].

[93]) داريل، الصياد المحظوظ: حكايات شعبية من نيجيريا الجنوبية،ص108-114.

6

الدخول الى عالم الأموات

كما رأينا اعلاه عن امكانية وصول الاموات الى الاحياء فإن العكس كان موجوداً ايضاً، ففي بعض الحالات يدخل الاحياء الى عالم الاموات، وعلينا هنا ان نأخذ بعض النماذج، ففي بلاد الرافدين يدخل اينكيدو(Enkidu) عالم الاموات، كما يرد في قصيدة يطلق عليها اسم: "گلگامش واينكيدو والعالم الاسفل"، وتشير القصيدة ان گلگامش حصل على هدية من آلهة الخصب والحب اينانا/عشتار(Inanna/Ištar) تتكون من شيئين يسمى الاول منهما في السومرية الـ پوككو(Pukku) والثاني الـ ميككو(Mikku) واللذين لا يُعرف مدلولهما على وجه التحديد، وربما الطبل ومضربه، ويبدو ان گلگامش اسرف في استعمال هديته، فألحق الضرر، بطريقة أو بأخرى بسكان مدينة اوروك، فتعالت صرخات النسوة، على حد تعبير النص السومري، واذا بالقطعتين تسقطان من يد گلگامش الى العالم الاسفل، فأدخل گلگامش يده وقدمه ليسترجعهما، ولكنه لم يستطع ان يصل إليهما، ثم نجده بعد ذلك جالساً عند مدخل العالم الأسفل وهو يندب وينوح:

"يا پوككي ويا ميككي

ان پوككي لا يقاوم في شدة الشهوة،

وميككي في الرقص والإيقاع لا مثيل له،

ان پوككي كان معي سابقاً في بيت النجار،

وكانت زوجة النجار معي آنذاك كالأم التي ولدتني،

وكانت ابنة النجار معي كأختي الصغرى،

آه يا پوككي من سيرجعه الي من العالم الاسفل؟

وميككي، من سيعيده الي من وجه العالم الاسفل؟".

وعندها ينبري اينكيدو، خادم گلگامش، ويتطوع بالنزول الى العالم الأسفل ليعيدها له ويخاطبه قائلاً:

"يا سيدي علام تبكي؟ وعلام قلبك مريض محزون؟

هو ذا انني سآتي لك بـ پوككـ(ك) من العالم الأسفل،

وميككـ(ك)، سأعيده إليك من وجه العالم الأسفل".

وبعد ان استمع گلگامش الى العرض الكريم الذي تقدم به خادمه نراه يحذره بلزوم مراعاة عدد من المحرمات(المحظورات) الخاصة بالعالم الأسفل مما ينبغي له ألا يرتكبها:

"قال گلگامش لـ اينكيدو

اذا نزلت الآن الى العالم الأسفل

فدعني اقل لك كلمة فاستمع لكلمتي،

ارشدك فاعمل بموجب ارشادي:

لا تلبس ثوباً نظيفاً

لئلاً يهجم عليك ذوو السلطة مثل الاعداء

ولا تمسح جسمك بالزيت الطيب من الاناء

لئلا يتجمعوا حولك بسبب عطره

لا ترمِ عصا الرماية في العالم الاسفل

لئلا يحيط بك اولئك الذين ضربتهم بالعصا

ولا تحمل عصا بيدك

لئلا تهيج الاشباح من حولك

لا تلبس نعلاً في قدميك

ولا تُحدث ضجة في العالم الاسفل

ولا تُقبل الزوجة التي تحب

ولا تضرب الزوجة التي تكره
لا تُقبل الطفل الذي تُحب
ولا تضرب الطفل الذي تكره
لئلا تمسك بك صرخة العالم الاسفل
(ذلك الصراخ) الموجه الى تلك المضطجعة
الى ام نينازو المضطجعة،
التي لا يغطي جسمها رداء
ولا يغطي ثديها المقدس دثار".

ونزل اينكيدو الى العالم الاسفل ولكنه، على ما يظهر من الاسطورة، لم يتمسك بأية وصية من وصايا گلگامش، فأمسكت به صرخة العالم الاسفل، ولم يعد بمقدوره الصعود الى دنيا الاحياء مرة ثانية. وحاول گلگامش مساعدة خادمه اينكيدو لإخراجه من عالم الاموات؛ فقصد الإله اينليل في معبده في مدينة نيبرو(Nibru) يستغيث به:

"يا ابتي اينليل، لقد سقط پوككي في العالم الاسفل،
وسقط ميككي في وجه العالم الاسفل،
ارسلت اينكيدو ليرجعهما إلي، ولكن كور(Kur) حبسه.
ان نامتار(Namtar) لم يقضِ عليه، ولم يقضِ عليه اساگ(Asag)
لكن كور هو الذي قضى عليه،
انه لم يسقط في ميدان القتال، في حلبة الرجولة،
ان كور هو الذي قضى عليه.
ان كمين نرگال(Nergal) الذي لا يفلت منه احد، لم يقبض عليه
ان كور هو الذي قضى عليه".

ولكن اينليل لم يستجب لاستغاثته؛ وبعد ذلك قصد إله الحكمة اينكي في اريدو واستنجد به لإنقاذ صديقه، فاستجاب له اينكي وطلب من الإله اوتو(شمش) ان يُحدث فتحة في العالم الاسفل ليُخرج منها شبح اينكيدو وهو كل ما تبقى منه بعد ان اصبح سجيناً في عالم الأموات. وتعانق گلگامش مع صديقه أو بالأحرى مع شبح صديقه اينكيدو، وهنا يبدأ گلگامش بتوجيه السؤال تلو الآخر الى صديقه عما شاهده في عالم الاموات[94].

بعد ان انتهينا من بلاد الرافدين فلنأخذ مثالا آخر، فحسب ڤيرجيل مثلاً نرى اينياس يصل الى كهف سيبولا في كوماي في ايطاليا ويطلب منها طلباً غريباً: "ان هذه بوابة الآخرة...وذلك هو المستنقع المظلم، ونهر اخيرون...فكم اتمنى ان اذهب الى والدي العزيز، وان اراه وجهاً لوجه، فلترشديني الى الطريق، ولتفتحي امامي الابواب المقدسة...انه هو نفسه الذي طلب مني اللجوء اليك، والتضرع لجلالتك، والتقرب من اعتابك. انني لأنشدك، يا سيدتي الرحيمة، ان تشفقي على الاب وابنه، وانت القديرة على كل شيء، فليس عبثاً ان تنصبك هيكاتي سيدة على احراش اڤيرنوس". ومن اجل ان يستعطف سيبولا فإنه يستشهد بحوادث قديمة قام افرادها بزيارة عالم الاموات: " اذا كان اورفيوس قد استطاع ان يحضر شبح زوجته من العالم الآخر بفضل قيثارته التراقية ذات الاوتار الشجية، والانغام السحرية؛ واذا كان پوللوكس قادراً على ان يستعيد اخاه، ويتبادل معه الموت والحياة، ويعبر الطريق الى الآخرة، ذهاباً واياباً؛ كذلك ثيسيوس العظيم وهيركليس، واذا كان كل هؤلاء من نسل الآلهة، فأنا ايضاً من سلالة چوبيتر العظيم". فأجابته سيبولا قائلة: "ايها الطروادي، يا

---

[94] صموئيل نوح كريمر، من الواح سومر، ترجمة: طه باقر، مراجعة وتقديم: احمد فخري، (القاهرة: مطبعة مصر،1957)،ص326-329؛ فاضل عبد الواحد علي، من سومر الى التوراة،(القاهر: سينا للنشر،1996)،ص268-270.

ابن انخسيس، يا سليل الآلهة، ما اسهل الهبوط الى اڤيرنوس، فأبواب ديس حالكة الظلمات، مفتوحة على مصراعيها ليل نهار. لكن ان تعود ادراجك الى الوراء، وان تصعد الى هواء العالم الارضي من جديد، هذه هي المشكلة، وهنا يكمن الخطر. قليلون فقط هم الذين استطاعوا ذلك، وهم من نسل الآلهة. انهم الذين احبهم چوبيتر العادل، فرفعتهم فضيلتهم الخالدة الى السماء. فكل ما بينهما(العالم الاعلى والاسفل) تغطيه الغابات، ويحيطه كوكيتوس الساري في مجراه المظلم". وهنا تقدم له نصيحة من اجل تحقيق مهمته وهي: "مع ذلك فلو ان مثل هذا الجنون قد مسك، ولو ان مثل هذه الرغبة قد ملكت عليك شغاف قلبك، فلتعبر بحير ستيكس مرتين وترى تارتاروس المظلم مرتين، وتجد سروراً في الاقدام على مثل هذه المخاطرة الجنونية، فلتعلم ماذا ينبغي عليك عمله اولاً. فهناك، وراء شجرة كثيفة مظلمة يختفي الغصن الذهبي، بجذعه اللدن واوراقه. انه كما يقولون مقدس لدى ملكة العالم الآخر، تغطيه كل الاحراش، وتخفيه الظلمات في وديان سحيقة. ولم يُمنح قط حق الهبوط الى العالم الاسفل قبل ان يقطف من الشجرة تلك الثمرة ذات الجدائل الذهبية. لأن بروسربينا الجميلة رأت ان يُقدم هذا الغصن لها كهدية خاصة. وعندما يُنتزع هذا الغصن، ينبت مكانه غصن آخر مثله تماماً- ذهبي وله ذؤابات ذهبية- ومن ثم اقتف اثر هذا الغصن بناظريك، فإن عثر عليه، فأقطفه بيديك في رفق، لأنه سوف ينخلع بسهولة، ويتبعك من تلقاء نفسه، اذا كانت الاقدار تناديك، والا فإنك لن تستطيع ان تنتزعه من مكانه، لا بسيفك البتار، ولا بأي من الجنود المسلحين...ثم انك...لا تعرف ان صديقاً لك يرقد الآن جثة هامدة، وانه، بينما انت تتلكأ على اعتابنا، وتستطلع نبؤأتنا، يلطخ بموته كل اسطولك. عليك اولاً ان تحمله الى مقره الأخير...ثم تحضر مواشي سوداء اللون، ولتكن بشائر قربان التكفير الاولى. عندئذ سوف ترى بعينك اجراش نهر

ستيكس وممالك لم يرها كائن حي"[95]. وكي يتمكن اينياس من النزول الى العالم الاسفل كان لابد له من تقديم قرابين مناسبة، فذهب الى كهف عميق ذو فوهة واسعة كئيبة، عسير المنال، يكمن وراء البحيرة المظلمة، والغابات الكثيفة، لا يستطيع طائر قط ان يقترب منه أو يرفرف فوقه بجناحيه وينجو سالماً، ولهذا سماه الاغريق اڤيرنوس أي مكان لا طير فيه، اذ ان زفيراً ساماً ينطلق من فوهته الكئيبة ويتصاعد الى عنان السماء. وقد اعدت الكاهنة اربعة عجول داكنة اللون، وصبت النبيذ على جباهها، ونزعت ذؤابات شعرها فيما بين القرون، والقت بها في النار المقدسة، ونادت بصوت مسموع: هيكاتي المهيمنة على السماء والعالم الاسفل. وقد غرز آخرون السكاكين في نحور الذبائح، واخذوا يلقفون الدماء الدافئة في اباريقهم. اما اينياس فقد ذبح بسيفه شاة ذات فروة سوداء تكريماً لأم إلهات الرحمة واختها العظيمة، وذبح بقرة عاقراً صغيرلـ پروسرپينا، ثم اقام ولائم تكريماً لروح ستيكس الملكية، والقى في النيران ذبائح من الثيران كاملة، بينما كان يسكب على الاحشاء المتوهجة سيلاً من الزيت[96].من جانب اخر كانت الهدية التي سيقدمها اينياس الى إلهة العالم الاسفل لها اهميتها هناك، فعندما وصل اينياس وسيبيل الى خارون ملاح ذلك العالم استوقفهما قائلاً: "من تكون انت، يا من تسعى الى نهرنا، وانت متقلد سيفك؟ هيا اجب، لماذا جئت؟ ومن أي مكان اتيت؟ قف حيث انت، فهنا عالم الاشباح، عالم النوم والليل الناعس، عالم غير مباح فيه لأجساد الاحياء ان تطأ سفينتي الخاصة بنهر ستيكس...". وهنا هبت سيبولا الى الاجابة مبلغة خارون بأن اينياس لا ينوي أي شر لكنه جاء الى اعماق اريبوس المظلمة لمقابلة والده، وكي يسمح لهما خارون بالعبور قدمت اليه الغصن

[95]) ڤيرجيليوس،الانيادة،ج1،ص281-283.

[96]) ڤيرجيليوس،الانيادة،ج1،ص286.

الذهبي، هدية لربة العالم الاسفل: "ابرزت الغصن الذهبي، الذي كانت تخفيه تحت ملابسها، عندئذ فقط تخلصت نفسه الثائرة من الغضب، ولم يتحدث اكثر من ذلك، لكنه-وقد ادهشته تلك الهدية المروعة- ذلك الصولجان الخطير، الذي لم يراه منذ امد بعيد ادار قاربه الداكن واقترب من الشاطئ. بعد ذلك فرق الارواح الاخرى التي كانت تجلس على المقاعد الطويلة، وفك سقالة المركب، وفي الوقت نفسه استقبل في قاربه اينياس...واخير وصلت الكاهنة والبطل سالمين عبر النهر، ونزلا على تربة هلامية مليئة بالحلفاء الداكنة"[97].

[97]) المصدر نفسه، ج1، ص295-296.

7

الزواج من الاموات!!

تشير بعض التقاليد المحلية الى وجود امكانية الزواج بين الاحياء والاموات لاسيما في الفولكلور الشعبي، اذ نقرأ في حكاية شعبية تركية عن هذه الحالة، وتقول الحكاية إنه: في مكان ما عاشت امرأة فقيرة وابنتها، وحين كانت الام تذهب للغسيل، كانت ابنتها تبقى في البيت تعمل في التطريز، وذات يوم كانت الفتاة تواصل عملها بجوار النافذة، فطار عصفور داخلا الى البيت وقال: "آه يا فتاتي، إن نصيبك هو مع شخص ميت"، ثم طار في الحال بعد ان اكمل جملته. فتبلبل عقل الفتاة واضطرب كليا، ولما عادت امها في المساء اخبرتها عما قاله العصفور، فنصحتها أمها: "تأكدي دائما ان تغلقي الباب والنافذة بإحكام، وانت تعملين". في اليوم التالي، أغلقت الفتاة النافذة والباب وأستأنفت عملها، وفجأة حط العصفور على طاولة تطريزها وقال عبارته ذاتها: "آه يا فتاتي، إن نصيبك هو مع شخص ميت"، ثم طار كما فعل سابقاً. صارت الفتاة أكثر خوفاً، وأخبرت امها عندما عادت، فقالت لها ناصحة: "غداً أغلقي النافذة، والباب بإحكام، وأزحفي الى الدولاب، واشتغلي هناك على ضوء الشمعة". غادرت الام في الصباح التالي كعادتها، وأغلقت هي الباب والنافذة بإحكام، وزحفت الى الدولاب، وأشعلت شمعة وبدأت عملها، وفجأة جاء العصفور للمرة الثالثة واخبرها بالعبارة ذاتها، ثم طار. لم يعد للفتاة المسكينة عقل يساعدها على مواصلة العمل في ذلك اليوم، فتركت التطريز جانباً، ولم تستطع ان تفعل شيئاً سوى التفكير بتلك الكلمات الغامضة، وعما يمكن ان تعنيه؛ حتى الأم نفسها انزعجت عن زيارة العصفور الثالثة، وقررت ان تبقى في البيت في اليوم التالي كي ترى نذير هذا المخلوق، لكن العصفور لم يعد ثانية. منذ ذلك الحين لا الام ولا البنت غادرتا المنزل، بل ظلتا تنتظران خشية

أن يرجع العصفور؛ وذات يوم جاءت مجموعة من الفتيات للزيارة، وطلبن من المرأة ان تسمح لأبنتها ان تخرج، لتسلي نفسها، وتحاول أن تنسى احزانها؛ لكن الام كانت خائفة من السماح لأبنتها بالخروج، إلا إن الفتيات وعدنها الا يتركن ابنتها تغيب عن انظارها لحظة واحدة، فاقتنعت في نهاية الامر. خرجت الفتيات الى المروج، ورقصن وتسلين، حتى غروب الشمس، وفي طريق العودة وقفن عند أحد الينابيع ليطفئن عطشهن، وذهبت أبنة المرأة المسكينة ايضاً الى النبع، وبينما كانت تشرب ارتفع سوراً كأنما بفعل سحري وفصلها عن رفيقاتها، ولم يحدث ان رأى أحد ذلك السور هناك من قبل، وكان الارتفاع الى درجة إن احد لا يستطيع ان يتسلقه، ومن العرض فلا يستطيع أحد ان يعبره. أصاب الفتيات كلهن الرعب، فبكين وانتحبن، وجرين يطلقن صيحات الحيرة، والاضطراب، واليأس. اما الام فقد وقفت عند الباب تنتظر بقلق ابنتها، فأقبلت الفتيات يبكين بصوت مرتفع، ولم يجدن الشجاعة لاطلاع المرأة المسكينة بما حدث. ولكن مهما يكن فقد علمت وسرعان ما جرت الى السور، وهناك كان الجو كله مفعم بالنواح، الأم من جانب، وابنتها من الجانب الاخر. وعندما تعبت الفتاة من البكاء، غرقت في النوم، وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي، أبصرت باباً كبيراً في السور، ففتحت الباب، وأبصرت قصراً بديعاً وفخماً، ثم دخلت حجرة المدخل، وابصرت اربعين مفتاحاً معلقا في الجدار، فأنزلت المفاتيح، واخذت تفتح الحجرة بعد الاخرى، فأبصرت في واحدة فضةً، وفي الاخرى ذهباً، وفي الثالثة ماساً، وفي الرابعة زمرداً، وفي كل حجرة احجار كريمة ثمينة تختلف عما في الاخريات، حتى شرعت عيناها تؤلمانها من بريق المجوهرات والاحجار الكريمة. وعندما بلغت الفتاة الحجرة الاربعين، رأت فيها سيداً وسيماً يجلس على نعش، وجواره مروحة من اللؤلؤ، وعلى صدره كتابة

تقول: "اياً كانت من تهويني، وتصلي بجانبي اربعين يوما، ستنال نصيبها". وهنا تذكرت الفتاة كلمات العصفور الصغير عن نصيبها هو مع شخص ميت[98].

تكشف هذه الحكاية عن اقصى ما يمكن للبشر ان يتصوره في علاقتهم مع الاموات، ولكن علينا ان نلاحظ جيداً ان هذه الحكاية الشعبية فيها الكثير من بقايا الاساطير القديمة، وفي أقل تقدير فهي تشبه الى حد مذهل الاسطورة الاغريقية الخاصة بهادس وبرسيفوني، وبلا شك كانت هذه الحكاية تعكس تصورا قديما تعرض للتشويه عن كيفية تحول الهة محلية الى ربة للأموات.

---

98) كانوز، المرآة المسحورة: حكايات شعبية من تركيا،ص26-30.

8

عظام الموتى واهميتها السحرية

تشير البيانات المتنوعة كيف ان الاحياء يستطيعون الاستفادة من عظام الموتى في طقوسهم السحرية، فكما ان الموتى لا يرون ولا يسمعون أو ينطقون كذلك يمكن-تبعاً لمبادئ السحر التعاطفي- جعل الناس عمياناً وصماً وبكماً باستخدام عظام رجل ميت أو أي شيء آخر يكون قد اتصل بالموت من قريب أو بعيد. مثال ذلك كان اللصوص في بلاد الاغريق القديمة يعتقدون ان بإمكانهم اسكات اشد كلاب الحراسة وحشية وضراوة، بل وحملها على الهرب بأن يحملوا معهم بعض الجمرات من احدى المحارق الجنائزية. وانه حين يخرج شخص عند الگاليلاريز(Galelarees)(في غينيا الجديدة شمال استراليا) لمقابلة محبوبته في الليل فإنه يأخذ حفنة من التراب من احد القبور فيذروه على سطح بيتها فوق المكان الذي يرقد فيه والداها متوهماً ان ذلك سوف يمنعها من الاستيقاظ اثناء مناجاته لها، على اساس ان تراب القبر سيجعلهما ينامان نوماً عميقاً كنوم الموتى. وقد كان اللصوص في كل العصور وفي كثير من البلدان يعتمدون على مساعدة هذا النوع من السحر المفيد في ممارسة مهنتهم، ففي جاوا(Java)(في اندونيسيا) ينثر اللصوص تراب احد القبور حول البيت الذي ينون السطو عليه على اعتبار ان ذلك كفيل بأن يجعل النوم يدب الى اجفان السكان؛ وكذلك يفعل اللصوص لدى الهنود الحمر في بيرو اذ ينثرون التراب المتخلف من عظام الموتى. وكان الهنود الحمر في المكسيك يستخدمون لتحقيق اهدافهم الشريرة عظمة الساعد الايمن لامرأة ماتت اثناء اول ولادة لها، ويشترطون ان تكون الذراع مسروقة، فيدقون بها على الارض قبل ان يتسللوا الى البيت الذي يريدون السطو عليه، فيفقد السكان القدرة على الكلام والحركة ويبدون ساكنين كالأموات بحيث يرون كل ما يدور حولهم

في البيت دون ان يستطيعوا التدخل، بل ان بعضهم كان ينام بالفعل ويرتفع شخيره. وكان اللص في سلاڤونيا(Slavonia)(في كرواتيا حالياً) مثلاً حين يريد السطو على احد المنازل يبدأ عمله احياناً بأن يُلقي بقطعة من عظام رجل ميت فوق البيت، وهو يقول بسخرية لاذعة: "كما ان هذه القطعة من العظام لا تستطيع ان تعود الى الحياة كذلك لا يستطيع سكان هذا البيت ان يقوموا من رقادهم"، فلا يستطيع اي شخص في ذلك المنزل ان يفتح عينيه بعدها. اما اللصوص في روثانيا(Ruthania)(في اوروبا الشرقية) فإنهم يُفرغون النخاع من عظمة ذقن الميت ويصبون فيها الشمع الابيض ثم يشعلون فيها النار ويسيرون ثلاث مرات حول البيت الذي يريدون السطو عليه وهم يحملون ذلك المشعل الآدمي فيتغلب النوم على السكان ويروحون في سبات عميق، أو قد يصنعون مزماراً من عظمة ساق الميت ويعزفون عليه فيدب النعاس في عيون جميع من يسمعونه. وكان الناس في اوروبا يزعمون ان لـ يد المجد(Hand Of Glory) مثل هذه الخصائص والقدرات. ويد المجد عبارة عن يد رجل مشنوق تؤخذ وتملح وتُحفظ حتى اذا وضعت في شمعة مصنوعة من شحم مجرم تم شنقه ايضاً ثم اضيئت مثلما تُضاء الشموع في الشمعدانات فقد جميع الحاضرين قدراتهم على الحركة واصبحوا عاجزين تماماً حتى عن ان يحرك احدهم اصبعه اكثر مما يستطيع الشخص المشنوق نفسه. وفي بعض الاحيان كانت يد الميت كلها تُستخدم كشمعة أو على الاصح كمجموعة من الشموع، فكانت النار توقد في كل الاصابع الجافة الذابلة، وكان عدم اشتعال النار في احد الاصابع يعني وجود شخص مستيقظ في البيت. ولم يكن يفلح في اطفاء هذا الضوء البشع سوى اللبن، وكثيراً ما كان الامر يقضي بأن تُصنع شمعة اللص من اصبع طفل حديث الولادة أو طفل ولد ميتاً، وهو الافضل. وفي احياناً اخرى كان اللصوص يفضلون ان يحملوا معهم شموع بعدد سكان البيت الذي يزعمون السطو

عليه حتى لا تكون هناك فرصة لبقاء شخصاً مستيقظاً فليقي القبض عليهم. ولم يكن يفلح في اطفاء هذه الشموع الصغيرة ايضاً الا باللبن. وقد كان اللصوص في القرن السابع عشر يقتلون النساء الحوامل ليحصوا من ارحامهم على تلك الشموع. كما كانت النساء في بلاد الصرب وبلغاريا حين تشتد عليهن وطأة العمل المنزلي ينزعن قطع النقود البرونزية التي توضع على عيون الجسد الميت ويغسلنها بالنبيذ والماء ثم يقدمن السائل بعد ذلك لأزواجهن، وبمجرد ان يشرب الزوج من هذا الشراب يصبح اكثر ميلاً الى التساهل واللين مع زوجته، فيتغاضى عن هفواتها ونزواتها، بل انه يُعمى تماماً عن ادراكها شأنه في ذلك شأن الشخص الميت الذي كانت تلك النقود تغطي عينيه[99].

في نيو كاليدونيا(تقع جنوب غرب المحيط الهادي وشرق استراليا) مثلاً يدهن صانع المطر(الذي يمارس طقساً سحرياً لاستنزاله) جسمه باللون الاسود ويُخرج من احد القبور جثة شخص ميت، ويحمل العظام الى احد الكهوف، حيث يثبتها بعضها ببعض، ويعلق الهيكل العظمي كله فوق اوراق القلقاس ثم يصب عليه مقادير من الماء بحيث تسيل على اوراق النبات ذلك انهم يعتقدون ان روح الميت تأخذ الماء فتحوله الى مطر ينزل مرة ثانية من السماء[100].

كان الفلاحون في روسيا حتى وقت قريب- ان صحت الرواية الشائعة- يُخرجون من القبر في المنطقة التي ينالها الجدب جثة شخص مات من الافراط في الشراب فيغرقونها في اقرب مستنقع أو بحيرة وهم مقتنعون تماماً ان ذلك سيؤدي الى سقوط المطر الذي هم في اشد الحاجة إليه. ففي عام 1868 حين توقع الناس سوء المحصول نتيجة لاستمرار الجدب قام اهالي احدى القرى في مقاطعة تاراشانسك(Tarashchansk) بإخراج جثة احد المنشقين من جماعة

---

99) جيمس فريزر، الغصن الذهبي: دراسة في السحر والدين، ترجمة: احمد أبو زيد وآخرون،(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر،1971)،ج1،ص160-162.

100) المصدر نفسه،ج1،ص271.

الراسكولنيك(Raskolnik)(وهم جماعة منشقة عن الكنيسة الارثوذكسية) كان قد مات في شهر كانون الاول السابق وانهال بعضهم بالضرب على الجثة أو على ما بقي منها- حول الرأس- وهم يصيحون: "اعطنا مطراً"، بينما اخذ الباقون يصبون عليها الماء من خلال غربال. وكثيراً ما تستعطف قبائل التورادجا(في اندونيسيا) الموتى من اجل الحصول على المطر، لذا نجد الناس في قرية كالبنجوا حيث يوجد قبر احد زعماء القبيلة المشهورين، يذهبون الى ذلك القبر حين تعاني الارض من حدوث الجدب في غير أوانه، فيصبون عليه الماء وهم يقولون: "ايها الجد، ارحمنا...ان كانت مشيئتك ان نُطعم هذا العام فأعطنا المطر". ثم يثبتون فوق القبر عوداً من القصب مملوءً بالماء وفي طرفه الاسفل ثقب صغير يسمح للقطرات بأن تتسرب منه الى الارض بغير انقطاع ويملئون العود باستمرار بالماء حتى تسقط الامطار وتغمر الارض. وكان رجال قبائل البارونجا في خليج ديلاجا(في نيو كالدونيا) يغمرون قبور اسلافهم بالماء ولاسيما قبور التوائم كوسيلة لجلب المطر. وقد كانت العادة عند بعض قبائل الهنود الحمر في منطقة اورينوكو ان يُخرج اقارب الميت عظامه من القبر بعد مرور عام من دفنه فيحرقونها ويذرون الرماد في الهواء اعتقاداً منهم ان الرماد يتحول الى مطر يرسله الميت على الناس في مقابل ادائهم لهذه الطقوس الجنائزية. ويعتقدون الصينيون انه اذا تُركت جثة شخص ميت بدون دفن فإن روحه تنزعج من المطر بالطريقة نفسها التي ينزعج بها الشخص الحي حين تفاجئه الامطار الغزيرة فلا يجد مأوى يحتمي به من قسوة الجو، ولذا فإن هذه الارواح البائسة تعمل كل ما في وسعها لكي تمنع المطر من السقوط. وكثيراً ما تُسفر جهودها عن نجاح فوق كل حدود التصور، بحيث تؤدي الى الجدب والقحط وهما اقسى النوائب التي يهلع لها الاهالي في الصين، نظراً لما يترتب عليهما من سوء المحصولات، وحدوث المجاعات، ومن هناك كانت

السلطات الصينية تهتم اشد الاهتمام في اوقات الجدب بدفن العظام الجافة للموتى الذين لم يدفنوا من قبل لوضع حد للبلاء ولإنزال المطر[101].

كذلك يستخدم الساحر في نيو كاليدونيا عظام الموتى من اجل مساعدة الشمس على الشروق، فعندما يريد الساحر ان تسطع الشمس بنورها فإنه يحمل بعض النباتات وفروع المرجان الى المدافن فليفها في حزمة واحدة بعد ان يضيف إليها بعض خصلات الشعر التي يقصها من رأس احد الاطفال الاحياء من أسرته هو، وعدداً من اسنان احد اسلافه الموتى أو حتى عظمة الفك كلها ثم يرتقي احد الجبال التي تتلقى قمته اولى اشعة الشمس حين تُشرق في الصباح فيضع فوق حجر مسطح ثلاثة انواع من النباتات التي حملها معه، كما يضع الى جانبها احد فروع المرجان، ويعلق حزمة التمائم كلها فوق الحجر. وفي صباح اليوم التالي يعود الى المكان ذاته ويُشعل النار في تلك الحزمة في اللحظة التي تبزغ فيها الشمس من البحر، وبينما يتصاعد الدخان من الحزمة المحترقة يحك الساحر قطعة الحجر بفرع المرجان الجاف وهو يتضرع الى اسلافه ثم يقول: "ايتها الشمس، انني افعل ذلك حتى تزداد حرارتك وتبتلعي كل السحب في السماء". ثم يكرر هذه العملية نفسها عند الغروب[102].

---

[101]) المصدر نفسه، ج1، ص271-274.

[102]) المصدر نفسه، ج1، ص291.

المحتويات

ان هذا العمل المقتضب لا يهدف في كل الأحوال الى دراسة مفصلة حول طبيعة فهم العالم الآخر في تراث الجنس البشري، كما لا يهدف الى فهم مفصل لطبيعة العلاقة بين الاحياء والموتى، بقدر ما يحاول ان يفهم جوانب من تلك العلاقة من جهة؛ ويسلط الضوء على مسألة في غايات الاهمية، الا وهي، كيف فكرت الشعوب القديمة بالموتى، وكيف اعتقدت انهم رغم انفصالهم عن عالم الأحياء، مرتبطين معهم في الوقت ذاته.

